ساحة الحياة



ساحة الحياة

عثمان نمر

أراد الملك "شرف الدين" -ملك المملكة الفقيرة- أن يستنصحَ الملك "علاء الدين" -ملك المملكة النموذجية والغنية- في كيفيّة النهوض ببلاده والرقيّ بها، فأشار عليه برحلةٍ طويلةٍ شاقّةٍ يجد فيها حلولًا لمشاكل بلاده، فسافر شرف الدين يَبْغِي نهضةَ بلادِه ورفعةَ شأنها...

فما هي هذه الرحلة العجيبة..؟

وماذا دارَ في كواليسِها ومحطّاتها..؟

وما هي الصعوبات التي واجهت الملِك..؟

وهل استفاد منها واستخلصَ العِبَرَ والعظات..؟

هيّا بنا لنتعرّف على أحداث هذه الرحلة العجيبة.


ISBN 978-977-618-326-1



ساحة الحياة



ساحة الحياة

تحرير

يوكسل جلبنار

مراجعة

خالد جمال عبد الناصر

تصحيح

سليمان أحمد شيخ سليمان

المخرج الفني

أنكين جيفجي

غلاف

نوردوغان شكماكشي

تصميم

باووز يلماز - أحمد شحاتة

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6183-26-1

رقم النشر: 1008

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 ج - جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 002 01000780841

E-mail: info@daralnile.com

www.daralnile.com

القاهرة - 2015م

ساحة الحياة

تأليف

عثمان نمر

ترجمة

محمود نبي



بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس



السلطانُ المتواضعُ وبلادهُ العظيمة

عاشَ في إحدى البلادِ قبلَ سنواتٍ طويلةٍ مضت قومٌ جُلُّهم منَ الأغنياءِ وليسَ فيهم من الفقراءِ إلّا القليلُ، وقد بُنيتْ في هذهِ البلادِ أجملُ المساجدِ، وافتُتِحَ فيها العديدُ منَ المعاهد الدينية، وكانتِ الطرقُ والجسورُ والنزلاتُ والحمّاماتُ وافرةً يَعجِزُ المرءُ عن إحصائها، تجري فيها أحدثُ تطوراتِ العصر وأكثرُ اختراعاتِه، وتتناقلُ الألسنةُ أخبارَ تلكَ التطوراتِ والاكتشافاتِ بشغفٍ وانبهار.

كانَ الأهالي يقدِّمونَ الطعامَ للحيواناتِ البريةِ في غاباتِ تلكَ البلادِ العديدةِ حتّى تتخطى أيّامَ الشِّتاء القارس، أما الجداولُ التي ترتادُها الطيورُ المهاجرةُ فلم يعد يقربُها الناسُ حتّى لا تجفُل وتُغادرها.

يطلق على هذهِ البلادِ اسم "المملكة الخضراء"، وأجمل ما فيها هو التضامنُ فيما بينَ الناس، فأنتَ ترى الأغنياءَ يُساندونَ الفقراءَ، ويدْفعونَ الزّكاةَ والصدقاتِ دونَ انقِطاع.

تُجـرى كافةُ الأعمـالِ في القُرى بأسـلوبِ العملِ الجماعيّ، ولذلـكَ يتـمُّ إنجـازُ واسـتكمالُ الأعمـالِ لـكلِّ النّـاسِ دونَ أيِّ استثناء، كما كان الجميـعُ يُشاركُون في التَّعازِي والأعْراسِ دونَما أيِّ تَمييزٍ بيْنَ فقيرٍ وغَني، وقَدْ كانَتِ الدُّولُ الأُخْرى تَحْسُـدُ تلك المملكة، وفي مُقَدِّمَتِها الدُّوَلُ المجاوِرةُ.

قـادَ هَـذِهِ البِلادَ سـلطانٌ مُتواضِـعٌ يُدعى عـلاء الدين، وهوَ فـي أواخِرِ العَقْدِ الثَالثِ مِن عُمرِه، كانَ شـخصًا لا يَكلُّ ولا يَملُّ مِنَ العَمل، دائمَ التَّخْطيطِ لما سَـيَفْعَل، سـواءً في الَّليلِ أَو النَّهَار، يَسْتَشيرُ أهلَ المعرفةِ قَبْلَ أنْ يَتّخِذَ أيَّ قَرار، كثيرَ التفكيرِ والعَمل، قليلَ الكلام، اكتَسـبَ محبةَ شعبهِ بوقارهِ وبعزَّتِه وحكْمَتِه، ودورِه الكبيرِ جدًّا في تطور مملكته.

كانت جميع البلاد تتابع أَوضاعَ المملكة الخضراء بإعجابٍ شـديد، ومـنْ بينِ هـذهِ البـلاد: "المملكـة الزرقاء" وهـي الدولةُ الأقربُ للمملكة الخضراء، وكانَ شـرف الدين سـلطانُ المملكة الزرقاء الذي يناهز عمره الثَّلاثينَ عامًا، شابًّا وإنسانًا طيبَ القلب، ولكنهُ وعلى الرَّغمِ من ذلك، أمْضى أغلبَ وقتِه حزينًا قلقًا.



السلطان شرف الدين يفكر في السفر

كانت المملكة الزرقاء الّتي يحكُمها السلطانُ شرف الدين مملكةً فقيرةً جدًّا، رَغْمَ أنَّها كانت تمتلكُ أراضِي شاسعةً وخصبةً وعددًا كبيرًا من السكان، ولكنَّ سُكَّانها كانوا كُسالى بُلَداء، حتَّى إنَّ سُكَّان الدُّول الأُخرى الّذِين يأتُون لزيارتِهِم كانُوا يشعرونَ بالخُمولِ والنُّعاسِ عِنْدَ رؤيتِهِمْ على هَذِهِ الحَال، وكانَ القِسْمُ الأعْظمُ مِنَ الشَّعبِ فَقِيرًا على الرَّغمِ من وجودِ أغْنياءَ كثيرين جدًّا في هذهِ البِلادِ، ولكنَّ الفُقَراءَ لمْ يَستفيدُوا مِن الزكاةِ والصَّدقاتِ التي كان يقدِّمُها أغنياؤُهم، ولمْ يَكُنِ الأغنياءُ بِدورِهِم يبذُلُونَ جُهدًا في البَحْثِ عنِ المحتاجِين، بلْ رُبما أَهْملوُا في أَغْلبِ الأوقاتِ تَقديمَ الزكاةِ والصَّدقَات، وكانَ السُّلطانُ شرف الدين كُلّما فكّرَ بهذهِ الأُمورِ أُصيبَ بالأَرَق، ولكِنَهُ لَمْ يَسْتَطِعْ إعدادَ خُطَّةٍ لوَضْعِ الأُمورِ في نِصابِها الصَّحيح.

وفـي حقيقـةِ الأمـرِ كان السـلطان شـرف الديـن قَـدِ اجتَمَع عِـدَّة مـرّاتٍ مـعَ مستشـاريه ليتناقـش معهـم فـي شـؤون البِلادِ، وتَباحـثَ معهُـم لأيّـامٍ وليـالٍ طِوالٍ سـبلَ تصحيح مسـار البلاد، واتَّخذَ قراراتٍ عديدةً في هذا الشَّـأنِ، وكان الحماسُ الذي تجْلبُه هذه الاجتِماعاتُ يَتسـبَّبُ في بعضِ الحركةِ والنّشـاط، إلّا أنَّهُ بعدَ فَتْرةٍ وجِيزَةٍ تَعودُ أيّامُ الكَسـلِ إلى سـابقِ عهدِهَا، لأنَّ سُكّانَ البِلاد وفي مُقدِّمَتِهِمُ السُّـلطان كانُوا يَسْـتَصْعِبُونَ الامْتِثـالَ إلى القراراتِ المُتَّخَذَةِ؛ لأنَّ الكَسَـلَ كانَ قَدْ أَصبَحَ طبعًا متأصِّلاً فيهِم، وقَدْ كانَ السُّلطانُ شرف الدين يَبْحثُ بِشكلٍ دَائمٍ عنْ سُبلِ التَّخلُّصِ مِنْ هذا الوَضْـع، إلَّا أنَّهُ لم يَستَطِـعْ أنْ يَجِدَ مَخْرَجًا مِنْ هَذا الحَال.

وفـي أَحـدِ الأَيَّامِ خَطَـرتْ بِبالِه فِكـرَةٌ مُغايِرةٌ لتِلْـكَ الأَفْكارِ السَّـابِقةِ للتَّخَلُّـصِ مِـنَ الوَضْـعِ السَّـيِّءِ السَّـائِدِ في بِـلادِه، ففكَّر في نفسـه قائِلاً: "سـأذهبُ إلى السُّـلطان علاء الدين لأَستَشـيرَهُ فـي الأَمْر، فلرُبَّما اسْـتطعتُ إنقاذَ بِلادِي إذا مـا نفَّذْتُ اقتراحاته، ولرُبَّمـا اسـتطعتُ تَنْميـةَ بِـلادِي إذا مـا أنجَـزتُ نَفْـسَ الأَعْمالِ الَّتِي أَنْجَزَهَا هُوَ"، وقَرَّر زيارةَ سُلطانِ المملكة الخضراء.

ودونَمَا أيِّ تَأخِيرٍ عَرَضَ فِكْرَتَهُ هَذِه عَلى الشَّخصيّاتِ المهمة في البِلادِ وعَلى أصدقائِهِ المُقرَّبين، وسَأَلهُم قائلًا:

- أيُّهـا السَّـادَة!! تَعْلَمـونَ أنَّ الأَعْمارَ قصيرةٌ جـدًّا وأنَّ هُناكَ الكثيـرَ منَ الأعْمالِ الَّتي يجبُ القيامُ بِها، وتَعْلمُونَ جميعًا أحوالَ بلادِنا، ما رأيكُم أنْ أزورَ السلطانَ علاء الدين، وأستشيره في أمر إنقاذِ بلادِنا منْ هذا الوضـعِ السيِّءِ الَّذي نُعانِي مِنْه؟

وحالَمـا انتهَـى السـلطانُ مِنْ تَوجيهِ سُـؤالِه بـدأَ الـمُجتَمِعونَ يتَهامَسُـونَ فيمـا بينَهُم قائلين: "سـنخوضُ مُغامرةً نحـنُ في غِنًى عنْهـا، إنَنـا نَعيشُ حياتَنا كما اعتَدْنَا، ولا دَاعيَ لأنْ نَقومَ بِذلك، فلا توجدُ قاعدةٌ في العالمِ تقضي بأنْ تكونَ كلُّ البلاد غَنيّة"، ولكنَّهُم قالُوا للسُّـلطانِ ما يَلي -ظنًّا منهُم أنَّ ما سـيقولُونَه سـينالُ إعجابَ السُّلطان-:

- إنهـا فكـرةٌ رائعـة! طَبعًا يجبُ علينـا القِيامُ بـكلِّ ما ينْبغي مـنْ أجلِ تحقيقِ التَّنمِيةِ في بِلادِنـا، إِضافةً إلى ذلك فإنَّ المملكة الخضراء من أغْنى بلاد العالمِ وهيَ قريبةٌ جدًّا منَّا، والذّهابُ إلى السُّلطانِ علاء الدين والاطِّلاعُ على أفكارِهِ رأيٌ صائبٌ وسديدٌ.

فردَّ السلطان:

- أنا سـعيدٌ لأنَّكُم تُشـاطِرونَني الرَّأي، حسـنًا إذًا، مَنْ منكُم يَرغبُ في الذَّهابِ مَعي؟

وما أنْ أنْهى السّـلطان تَوْجية سُـؤالِه حتَّى تعَالتِ الهَمسـاتُ بينَ الـمُجتَمعينَ مرَّةً أُخرى.

لم يكُنْ أيٌّ منَ الـمُجتمعينَ متحمِّسًـا للذَّهابِ مـعَ السُّلطان، وفـي نِهايـةِ الـمَطـاف وافَقَ كلٌّ من "سـليم" الوزيـرِ الأعظمِ لَدى السُّـلطانِ شـرف الدين وسـليمانَ الصديقِ المقرَّبِ من السُّـلطان على الذَّهابِ في هذهِ الرِّحلة.

ولمْ يستَطِعِ السُّلطانُ شرف الدين والوزيرُ الأعظَمُ وصديقُه تَجهيزَ أنفسِـهم والبدْءَ في سـفرهِم إلى المملكة الخضراء إلَّا بعْدَ مـرورِ أسـبوعٍ على اتِّخاذِ هذا القَرار، فالكسَـلُ والبـلادةُ لازمتْهُم حتَّـى فـي الوقتِ الـذي كانوا سيسـافرونَ فيه للبَحثِ عن سـبيلٍ للتَّخلُّـص منْهمـا، وفي نهايـةِ المطافِ حانَ موعدُ السَّـفر، فأوْكَلَ السّلطان أمرَ إدارةِ البلادِ للوزير الثّاني، وبدأَتِ الرِّحلة.



السفر إلى المملكة الخضراء

بعـد رحلةٍ طويلة ظهرت حدودُ المملكـةِ الخضراءِ من بعيد، فقرَّر شـرف الدين ومن صاحَبَه أن يسـتريحوا تحْت شـجرة دُلْبٍ هزيلةٍ واقعةٍ على رأس تلّةٍ مطلَّةٍ على عاصمةِ البلاد، فقَضَوا ليلتهُم هنـاك، وكانـوا ينوون التوجُّه إلى السـلطان عـلاء الدين في صباحِ اليـومِ التالـي وهُم بكامـل حيويّتهم، بدت العاصمـةُ لهم في الليل منيرةً ومتألقةً بسبب المشاعل التي كانت تُنير شوارعها، وقد كانت نظراتهم المليئة بالإعجاب ترنو إلى جمالها، كما أنَّ حَفِيفَ أوراق شـجرةِ الدُّلْـب الذي يُثيره نسـيمُ اللَّيـلِ العليلُ قد أدخل السـكينة والطمأنينة إلى قلوبهم جميعًا، وبعد مدة قصيرة نام سليمان وسليم بالقـربِ من النَّـار الّتي أدْخَلـتِ الدِّفـءَ إلى قلبيهما، أما السـلطان المهمـوم شـرف الدين فتابـع تأمُّلـهُ لعاصمة المملكـة الخضراء بإعجاب لا نظيرَ له، ودعا طويلًا وتوسل كثيرًا ليرزقه الله بلدًا بنفس الجمال، وتمنّى من الله أن يمنحه القوة والعزيمة والحرص من أجل

النجاح في تحقيق هذه الرَّغبة، ثم استسلمت عيناه للنوم بعد مضيّ قليل من الوقت، فلحق بصاحبيه.

وفي الصباح التالي استكملوا استعداداتهم بعد الاستيقاظ مباشرةً ثم تابعوا طريقهم، ورأَوا في أطرافِ المدينةِ شوارعَ وأزقّةً منظمةً ونظيفةً، وكانت الشوارع مُزْدانَةً بالمشاعل، حيث كان كُلُّ مِشْعَلٍ مُخصصًا لإضاءَةِ أربعةِ بيوت، وكانت نوافذ وشُرُفات كُلِّ البيوتِ تقريبًا مُكلَّلةً بورودٍ وزهورٍ من شتَّى الألوان، وكان أهالي المدينةِ جميلي الِهندام، بَشُوشِي الوُجوه، يمشونَ بخطًى سريعةٍ وثابتة لا يتخلَّلُها سوى السَّلام، عندما رأى السلطان شرف الدين هذه الأمور تذكَّر أفراد شَعْبِهِ الذين يَجُوبون الطُّرق والشوارع بلا غاية ولا هدف، ويُضيِّعون وقتهم في الثرثرة أمامَ نزلاتِ العمَل، لم يرَ السلطان شرف الدين شخصًا واحدًا يُضيِّع وقته كما يفعل سكَّان بلدِه، لقد كان الصغار والشباب يتصرَّفون باحترام بالِغ تِجاه المُسنِّين، وكانت مشاعرُ الحب تُظهر نفسها في كلِّ تصرُّفٍ يتصرفه المُسنُّون تجاه هؤلاء الصغار والشباب.

وبعد أن توغَّل شرف الدين وصَحبه في المدينة سألوا أحد البَاعةِ عن الطريق إلى القصر، فعرف البائع على الفور أنهم غرباء عن المدينة فقال لهم مبتسمًا:

- القصر؟

فأجابوه:

- نعم، نسأل عن قصر السلطان علاء الدين.

فأجاب البائع:

- السلطان علاء الدين ليس لديه قصر، إنه يعيش في بيت مؤلّف من طابقين، وهناك مكانٌ يُسيّر منه أمور البلاد، أظنكم تسألون عن ذلك المكان.

فأجابه السلطان شرف الدين:

- نعم، نعم، إننا نسأل عن ذلك المكان الذي يُديرُ البلاد منه.

ولكنه عندما تذكّر فخامة قصره استحى قليلًا، واختلطت الأفكار في ذهنه إلى حدٍّ كبير، فقال في نفسه: "إنَّ البلدان تُدارُ من القصور، كيف يُمكن أن يكون بلدُ سلطانٍ ما جميلًا إلى هذا الحد في الوقت الذي لا يملك فيه قصرًا واحدًا؟"

تابعوا طريقهم خلال المدينة كما أشار عليهم البائع، وكان إعجابُهم بنظام المدينة وانتظامها يزداد مع كلِّ خطوةٍ يخطونها إلى الأمام، نُوديَ لصلاة الظهر في اللحظة التي وصلوا فيها إلى بيت السلطان علاء الدين، حيث كان الهدوء يسود المكان؛ فقال سليم:

- إنَّ قصرنا أكبرُ بمائة مرةٍ على الأقل من هذا البيت.

فَردَّ عليه السلطان شرف الدين:

- صحيح، ولكن هذه المدينة أيضًا أكبر من عاصمتنا بمئة مرةٍ على الأقل، أيها الوزير الأعظم!! أظن أن الموضوع لا يتعلق بمدى كِبَرِ القصر، ما رأيك؟

طأطأ سليم رأسه بخجلٍ، وقال:

- معك حقٌّ يا مولاي.

قام وزير السلطان علاء الدين الذي عَلِمَ بقدومهم، باستقبالهم عند الباب وقال لهم:

- أهلًا وسهلًا بكم يا مولاي، أرجو أن تتفضَّلوا إلى الداخل، لقد قطعتم طريقًا طويلًا ولا شكَّ أنَّ التَّعب قد نالَ مِنكم، أرجوكم تفضلوا.

أُعجِبَ السلطان شرف الدين بحفاوةِ الاستقبال هذه، وقال:

- أهلًا وسهلًا بكم، لم يَكُنِ الأمر على هذه الدرجة من العناء، أردنا زيارة السلطان علاء الدين للقائه وتباذُلِ الحديث معه قليلًا إنْ سَمَحَ وقته بذلك.

فأجابه الوزير:

- مولاي، إن سلطاننا الآن في الجامع يُؤدي صلاة الظهر، وقد كان ينتظركم، أرجوكم أن تستريحوا هنا حتّى يأتي، ويشرِّفني أن أُقدّم لكم شيئًا في هذه الأثناء.

وفي اللحظة التي كان وزير السلطان علاء الدين يُقدِّمُ فيها بعض المشروبات لضيوفِه دخل السلطان علاء الدين من الباب.

هدايا السلطان علاء الدين

استقبل السلطان علاء الدين ضيوفه باحترامٍ وبِبَشاشةِ وَجه، واصْطَحبهم معه إلى غرفته، ووَجَّهَهُم إلى أماكن جُلوسِهِم، وبعْدَ أنْ سَألهم عن أحوالِهم، خاطبَهم قائلًا:

- ما الذي أتى بكُم إلى بلادي؟ كيف يمكنني مساعدتكم؟

بعد هذا السؤال بدأ السلطان شرف الدين يقصُّ عليه مأساته، فتحدَّث عن تخلُّفِ بلاده، وبساطةِ شَعْبه، وزيادةِ نِسْبَةِ البَطالة، وزيادةِ أعدادِ الفقراءِ حتّى بات إحصاؤُها غيرَ ممكن، وبينما كان السلطان علاء الدين يستمع باهتمامٍ بالغٍ لكلّ ما قاله، تابَع السلطان شرف الدين قائلًا:

- هذه هي حالُنا يا سلطان علاء الدين، فما هو السبب الذي أَوْقَعنا في هذه الحالِ برأيك؟ لقد أتَينا إليكَ على أملِ أنْ تُقدِم لنا بعضًا من خبرتك، وتَدُلَّنا إلى سبيلٍ يُخلصنا من هذه الأوضاعِ المُزرية، كما تعلم، لقد كان أبَوَانا أيضًا صديقين حميمين، وكانا على الدوام يستشيران بعضهما البعض.

دفع هذا الحديث السلطان علاء الدين إلى التفكير قليلًا، ثم قال للسلطان شرف الدين:

- سأُقدّم لك كُل ما أستطيعُ من مساعدة، ولكن دعنا الآن نتحدّث عن طُرُقِ الخَلاص من المصاعب التي تعانون منها، فهناك بالتأكيد طريقة للخلاص من هذا الدَّاء، كل ما سأقوله لك هي أمور اتّبعتها في حياتي واتّخذتُ منها منهجًا أبْعَد عنّي ما ذكرته من مصائب، وإنْ تتبع هذا المنهج أنت أيضًا فسيُعفيكَ وأهْلَكَ من المصاعب بإذنِ الله.

فرح السلطان شرف الدين كثيرًا لما سمعه، وقال للسلطان علاء الدين:

- ما هو هذا الحلّ؟ قل لي بربك ما هو! على ما علمتُ من كلامك أنَّ هناك حلًّا لكافّة مشاكلي؟ هذا يعني أن هناك أشياء أستطيع أن أفعلَها لنفسي ولبلدي؟

فردّ عليه السلطان علاء الدين مبتسمًا:

- نعم، لا يوجد داءٌ بلا دواء في هذه الدنيا، الدواء الذي سأصِفُهُ لدائِك هو أنْ تقومَ برحلة، وأنْ تصلَ في نهاية هذه الرحلة إلى ساحة الحياة.

عندما سمع شرف الدين هذا الكلام توسّعَت حدقتا عينيه وبدأ يسْأَلُ سؤالًا تِلوَ الآخر:

- ساحة الحياة؟ هل ستصبح هذه الرحلة دواءً للأمراض التي تُعاني منها بلادي؟ ماذا لو تسبَّبَتْ هذه الرحلة الجديدة في مشاكلَ جديدةٍ لبلادي؟ وما هو هذا المكان الذي تتحدّث عنه! لم أسمع عنه من قبل، كيف هو السبيل إلى ساحة الحياة هذه؟

وبعد أن فرغ شرف الدين من أسئلته بدأ السلطان علاء الدين يجيبه:

- هناك بعض القواعد التي يجب أنْ تتقيَّد بها لكي تستطيع الذهاب إلى ساحة الحياة، كما أنَّ هنالك بعض المصاعب التي ينبغي مواجهتها من أجل الوصول إليها، لقد قُمْتُ بهذه الرحلة قبل عدَّةِ أعوامٍ بناءً على توصيةٍ من والدي، وقد كنتُ حينها على وشك أن أستَلِم مِنه السَّلطنة وأَتَقَلَّد الحكم في "المملكة الخضراء"، وقد عُدْت من ساحة الحياة بكَنزٍ أَوْصَل بلادي إلى هذه الحال التي تراها، صدقني، سترى أن الوصول إلى هناك يستحق تحمُّلَ كلِّ هذه المتاعب.

وعلى الرَّغمِ من حديث السلطان علاء الدين المُشجِّع هذا إلّا أن السلطان شرف الدين كان يعتريه شيءٌ من التَّردد، فتوجَّه

إلى السلطان علاء الدين سائلًا:

- حسنًا، لنفترض أنّي قبلتُ الخروج في هذه الرحلة، ما الذي سيَحصُل بعد ذلك؟ أرجوك أنْ تُتابِع حديثك.

وتابع السلطان علاء الدين حديثَه:

- ستحتاجُ "شوقًا" للذهابِ إلى هناك.

قاطع السلطان شرف الدين حديثَ السلطان علاء الدين بسؤالِه:

- "شوق"؟ ماذا تقصد يا سلطان علاء الدين؟

فأجابه:

- نعم شوق، إنه جوادٌ أبيضُ اللون وهو عربيٌّ أصيل، سيكون عونًا لك، وعليك ألّا تُفارقَه طَوالَ الرِّحلة.

فسَأل شرف الدين مجدّدًا:

- إذًا سيكونُ شوق هو جوادي في هذه الرحلة، وماذا بعد؟

فأجابه السلطان علاء الدين:

- ستمتطي صهوة شوق، وستسير لمدَّةِ أسبوعٍ باتجاهِ المشرق، وبعد ذلك ستصل إلى صحراءَ مليئةٍ بشتَّى أنواعِ المخاطر حيث ستُعاني من الحرِّ والعطش الشديدين.

كان كلٌّ من سليمٍ وسليمانَ أصحاب السلطان يُصغيان بمُنتهى الاهتمامِ إلى حديثِ السلطان علاء الدين، وفي الوقت الذي قال فيه السلطان علاء الدين: "إذا ما نجحتم في اجتياز الصحراء..." قاطع سليم وسليمان السُلطان علاء الدين، واعتذرا من السلطان شرف الدين عن الخروج في رحلةٍ كهذه، وحاولا إقناع السلطان شرف الدين أيضًا بعدمِ الخُروج في هذه الرحلة، وقالا له:

- لا فائدةَ من الذهابِ إلى مكانٍ نجهله تمامًا، نستطيع العيش في بلادنا كما في السابق ودون أنْ نُغيِّرَ من أحوالِ البلاد، كما أنَّه من الخطأ تعريضُ حياةِ السلطان للخطر.

دفع هذا الكلامُ السلطانَ شرف الدين إلى التَّفكير لبعض الوقت، ولكنه كان يبدو عازمًا على الخروج في هذه الرحلة مهما كانت العَواقِب، تجاذبَ أطرافَ الحديثِ مع رفاقِه مُجددًا بينما كان السلطان علاء الدين في هذه الأثناء يُراقبهم بصَمْت، وفي النهاية قرَّر السلطان شرف الدين إرسال رَفيقَيه اللَّذين خافا مُواجهة الصِعاب قبل أنْ تبدأ الرّحلة إلى المملكة الزرقاء، وبعد أن ودَّعهُما عاد مجددًا إلى السلطان علاء الدين وقال له:

- ليسَ لديّ خيارٌ آخر وسأقوم بهذه الرحلة، هل لك أنْ تُعطيني معلوماتٍ إضافيةً عنْها؟

فـرِحَ السـلطان عـلاء الدين بقـرار السـلطان شـرف الدين، وأجابه:

- لـديَّ جَوادٌ يُدعى شـوقًا، لقد ربَّيتـه واعتنيتُ بِه لِمِثْلِ هذهِ الرَّحلات، ما رأيكَ أنْ أُعطيكَ إيَّاه؟

بَدَتِ الرَّاحة على السلطان شرف الدين، وقال:

- شكرًا جزيلًا لك، وماذا سيَكون في انتظاري بعد اجتيازي للصحراء؟

قال السلطان علاء الدين:

- كُنْت على وشـك أنْ أُخبِركَ بذلك، سأُعطيكَ سيفًا وقوسًا وسهامًا لاستعمالها طوالَ هذه الرحلة، وسيكون الصَّبرُ أَكبرَ عَوْنٍ لكَ فيها.

أثارَ السَّـيفُ والسِّـهامُ وشوقٌ فُضولَ السـلطان شرف الدين كثيـرًا، وكان ينتظـر بفـارغ الصبر امتطاء صهوة شـوق والانطلاق في رحلته بسرعة الريح، وبينما كانت هذه الأفكار تدور في ذهن شـرف الديـن، أُعجِبَ السـلطان علاء الديـن كثيـرًا بالعزم الذي أبـداه، وأَمَـر بتجهيز شـوق، ثم جلب السـيف الملفـوف بقماش مـن الـمُخْمَـل، الموضوع داخـل صندوق يَقْبَعُ فـي إحدى زوايا الغرفة، كان لمعان السيف كافيًا لإيقاظ شرف الدين من خيالات الرحلة التي كانت تدور في رأسه، فقال:

- أهذا هو السَّيف الذي سأستعمله في أثناء الرحلة؟

وضـع السـلطان علاء الديـن غِمْدَ السـيف جانبًـا، واقترب مـن شـرف الديـن، كان لمعـان السـيف مذهـلًا، وكان يشـبهُ إلى حدٍّ بعيد سيف سيِّدنا عليّ، كانت الآيات المحفورة تملأ كافة أجزاءِ السَّـيف من الجانبين، مدّ السـلطانُ علاءُ الدين السيفَ إلى السلطانِ شرفِ الدين، وقال له:

- تفضّـل خُـذه وليُباركْه الله لك، ستسـتعملُه إذا ما واجهتك المخاطر.

عاد السـلطان علاء الديـن إلى الصندوق مجـدَّدًا وأخرج منه قوسًا مصنوعًا من الذهب وعليه سهامٌ محفورةٌ عليها الآيات أيضًا، واقترب من السلطانِ شرفِ الدينِ المذهولِ بما رآه، وقال له:

- تفضَّـلْ، خُـذْ هذا القوسَ وهذه السـهامَ، فهي ستسـاعدك في رحلتك.

أعاد السـلطان شرف الدين السـيف إلى غِمْدِه وهو في حالة ذهولٍ شديدة مما رآه، وتوجَّه بالسُّؤال للسلطان علاء الدين:

- أيْنَ سأستخدم هذه السِّهام أيها السلطان؟

فأجابه السلطان علاء الدين:

- قـد لا يَكْفيـك السَّـيف وَحْـدَه عنـد اجتيـازك للصحراء، وحينها ستستخدمها.

بدأ التردُّدُ يراودُ السلطانَ شرفَ الدين بسبب كثرة الاستعدادات التـي سَتَسْـبِقُ الرِّحلة والمخاطـر التي قد يواجههـا فيها، وعندما أحـسَّ السـلطان علاء الدين بهذا التـردُّدِ أراد أن يوجِّه تنبيهًا آخرَ للسلطان شرف الدين حيث حذَّره بأنه قد تواجهه مصاعب كثيرةٌ أثنـاء هذه الرحلة، كما بشَّـره بأن الثمار التي سـيجنيها في النهاية كثيرةٌ أيضًا، فقال له:

- إذا ما قابلت في الصحراء أناسًـا آخرين ذاهبين إلى ساحة الحياة، فإيّاك أنْ تتعالى على أحد منهم.

لم يسـتطـع السـلطان شـرف الدين إخفاء دهشـته وفضوله، وقال:

- إذًا، هناك أناس آخرون في هذه الرحلة، أليس كذلك؟

فأجاب السلطان علاء الدين بثقة:

- بالطبـع! قـد تُصادف في طريقك أناسًـا خرجـوا في هذه الرحلة من أجل بلدهم أو من أجل أنفسهم أو من أجل عائلاتهم، فأنت لست الإنسان الوحيد الذي يسعى إلى التغلب على مآسيه.

فردَّ شرف الدين على هذا الكلام قائلًا:

- سـأفعَلُ مـا قلتـه لي، لـنْ أقـع فـي خلاف مـع أحـد ولنْ أتعالـى على أحد، وعلينا جميعًا أن نكون كالجسـد الواحد، إنك

علـى حـق، فالوحدة مصدر القـوة، إلى أين سـنَصِلُ بعد اجتيازنا الصحراء؟

فأجاب السلطان علاء الدين:

- عليك أنْ تجِدَ لنفسـك خندقًا عندما تُشـارف على اجتياز الصحـراء، سـتُتَابِع طريقك انطلاقًا من هذا الخندق، واسـم هذا الخنـدق هـو "خندق الصبـر"، أخي شـرف الدين إليـك وصيتي الأخيـرة: إيّـاك أن تكـون عجـولًا طـوال رحلتـك، عندمـا تصل إلى خندق الصبر ستجد هناك رجلًا مسنًا يملأُ النُّور وجهه، حيث سيَدُلُّك على ما تبقّى من طريقٍ لإتمام رحلتك.

وهنا بادَرَهُ شرف الدين سائلًا:

- حسنًا، إذا ما تقدمت داخل الخندق فهل سأصل إلى ساحة الحياة؟

ابتسم السلطان علاء الدين، وأجابه قائلًا:

- لا، لا... لقـد قلـت لـك بـأن الرجـل المسـن سـيَدُلّك علـى مـا تبقّـى مـن الطريـق، وسـتتعرَّفُ عليـه إذا مـا انتبهـت إلى كلامه بدقّةٍ. والآن، عليك أن تبدأ رحلتك دون إضاعة المزيد من الوقت، ستقطـع مسـافةً لا بأس بها من الآن وحتى المسـاء، أرجو من الله أن ييسّر طريقك.

وبعد أن أدّيا صلاة العصر معًا اصطحب السلطانُ علاء الدين السلطانَ شرف الدين إلى جواده شوق.



اللقاء الأول مع شوق

بعد خروجه من القصرِ رأى السلطانُ شرفُ الدين الجوادَ "شوق"، فلم يستطع أن يحوِّل نظرَه عنه لشدَّةِ إعجابه به؛ فهو لم يسبِق له أن وقعت عيناه على خيلٍ أصيلٍ كهذا، كان شوق يملِكُ قوائم طويلةً وظهرًا عريضًا، ويبدو من وقفته وكأنه سيطير، نظر شرف الدين إلى السلطانِ علاء الدين واحتضنه، وضمه إليه شاكرًا إياه، وضع شرف الدين السيف على خصره والقوس على ظهره وامتطى شوقًا، وما أنْ تحرَّك شوقٌ وبدأ يعدو حتى خُيِّلَ إلى شرف الدين أنه يطير، بينما كان السلطان علاء الدين يلَوِّح له بيده، ويدعو له بالتوفيق والسلامة.

كان شرف الدين متحمِّسًا جدًّا للخروج في هذه الرحلة، حتَّى إنّه قطع مسافةً مساويةً لمسير يومٍ كاملٍ قبل حلول موعد أذان المغرب، عندها قرَّر أن يستريح في منزل ويؤدي فيه

الصلاة، وبعد أن تناول عشاءَه قرأ آيات من الذكر الحكيم وبعض الأدعية من كتاب "جوشـن"[١] حتى غشَّـاه النعـاس، بعد أن ألقى نظـرة علـى السيف والقوس قال في نفسـه: "اللهم إني أسـألك التوفيق والسـداد في رحلتي هذه"، ثم اسـتلقى في فراشه، وتابـع قـراءة الأدعية ليُكلِّـل الله رحلته بالنجاح، وبعـد فترة وجيزة خلد إلى النوم.

استيقظ في الصباح على صوت الأذان العذْب، وعندما سمـع قَولَ المُؤذن "الصلاة خير من النوم" نهض من فراشـه مسـرعًا، وتوضَّـأ علـى عجـل، وذهب إلـى الجامـع الواقـع بالقرب من المنزل، وانضم إلى المصلين وغمره الشعور بالسكينة والطمأنينة الذي اعتاده عند أداء صلاة الفجر في جماعة.

بعد الصلاة عاد إلى المنزل وتناول طبقًا من الحساء، وتابـع طريقـه مصطحبًـا معه بعضًا من الزَّاد، كان شـوق يُسـابِق الريـح، وأمـا شـرف الدين فـكان مسـتمتعًا بهذا السـباق وهذه السـرعة، كان باسـتطاعة شـرف الدين أنْ يُنهي رحلته -التي قال السـلطان عـلاء الدين أنها ستسـتغرق أسـبوعًا- فـي ثلاثةِ أيّـام إذا ما تابـع السّـير على هذا المنوال، وفي الطريق خطر بباله ما قاله السـلطان

(١) جوشن: تعني دِرع، وأدعية الجوشن هي مجموعة من الأدعية والأوراد المأثورة والمخصصة للحفظ من الشرور.

عـلاء الدين عن الصحراء، حيث إنّ وزيره وصديقه المقربين إليه تخلّيا عن الرحلة ما أنْ سـمعا بالمصاعب التي سـتُواجههم فيها، ولكنَّه فضَّل أن يُواجه المصاعب التي سـتعترضه، فهل سيستطيـع مُواجهتهـا فعـلًا؟ وبينما كان يفكر في هذه الأمور تنبَّهَ إلى سـرعة شـوق التي بدأت تقلّ رويدًا رويدًا، وبعد أن اسـتعاد تركيزَه حفّز شـوقًا ليستَرجِـع سُرعته، فراح يتقدَّم بسرعةٍ فائقةٍ، فكانت حركته السـريعة تملأُ قلب شرف الدين حماسةً وإثارةً شغَلَتْه عن الانتباه إلـى طريقـه، حتى فاجأه صوتٌ قـويٌّ أعادَه إلـى الواقـع وعندها وجد الصحراء التي كان يقصِدُها أمامه.

بـدأ يلتفت يمينًا ويسـارًا محاولًا معرفـة مصْدَر هذا الصوت الـذي يُشـبه صـوت الرَّعـد، فدقَّق فـي الصخـور التـي كان يمر بجوارهـا، وكيف يكون هذا الصوت صـوت رعدٍ في وقتٍ تبدو فيـه السّـماءُ صافيـة! وبينما شـرف الدين في هـذه الحالة يحاول معرفة مصدر الصوت تَسَمَّرَ شوقٌ فَزِعاً، وكأَنَّ ذلكَ الجوادَ الذي كان يسـابق الريحَ قد أصبح جمادًا، وذهبت أدراجَ الرياح جميـعُ محاولات شرف الدين لجعل شوق يتقدّم إلى الأمام.

عندهـا صَـدَرَ صـوتٌ آخـر مـن خلـف الصخور التـي تقـع بالقرب منهما، فبدأت دقات قلب شرف الدين تتسارعُ أكثرَ فأكثرَ،

وراحَت أقدامُ شوق تغوص في الرمال، ووقف شرف الدين يتساءل: "ما هذا الصوت الذي زلزل الأرض؟"

هجوم اليأس

لـم تَعُـدْ قدمـا شـرف الديـن تَقوَيـان علـى حملـه إزاءَ هذه المجريـات، لقـد جفَّ ريقُه وتباطَأَت أنفاسُـه، وكادَ قلبُه يتوقف، كان الصوت قريبًا جدًّا إلى درجة أن شـرف الدين حبس أنفاسَـه، واسـتعدّ لمتابعة ما سـيجري من حوله، ولم يَعد يقْوى على إبداءِ أيَّـة ردَّة فِعل من شـدة الرُّعب، ومـع صـوت زئيرٍ آخر؛ خرج من خلف الصخور حيوانٌ بحجمِ الجَمَل شـبيهٌ بالأسـد، ولكنه ليس بأسد.

كانـت عينا هـذا الحيوان الغريب بحجـم قبضة اليد، وكانت أسـنانه حادةً كالسـكاكين، وهذه الأسنان المصطفّة في فكَّيه تشبه المنشار إلى حدٍّ بعيدٍ، وفمه يشبه المغارة عندما يزأَر، وبدا لشرف الدين أنَّه سيفترسه هو وشوقًا كلما فتح فمه.

كان شـرف الدين يُحـاوِل التَّعرُّف على هـذا الوحش، وظنَّ أنَّـه من إحـدى المخاطر التي حـذَّرَه منها السُّـلطان علاء الدين،

ولم يكن شرف الدين مُخطئًا في توقُّعاتِه، إنه اليأس! نعم اليأس، وهو عدوٌّ لكلّ شخصٍ يسعى لإحداث فرْقٍ في العالم من حوله، قام اليأس بمهاجمتهما وكأنه على عُجالة من أمره، ففي البداية غرز كفه الأمامي في الرمال ونثرها في وجه شرف الدين؛ وأصبحت الرمال المتصاعدة تملَأُ المكانَ حتى تسبّبت بانعدام الرؤية؛ وبعد أن أحسَّ شرف الدين أن اليأس خلْفَه، تعرَّض لصفعةٍ أوقعته من على صهوةِ فرسِهِ شوق، فوقع شوقٌ هو الآخرُ أرضًا نتيجةً لتلك الصفعة، وأُصيب على إثرها.

ما أن انقَشَع غبار الرمال حتى رأى شرف الدين نفسَه في مواجهةٍ مباشرةٍ مع فمِ اليأسِ الكبيرِ المفتوحِ على مِصراعيه، لقد كان اليأسُ على وشك أنْ يبتلعَه، ولكنّ شرفَ الدين مدّ يده إلى خصرِهِ واستلّ سيفَهُ من غمده في لحظةٍ حاسمةٍ، وصرخ صرخةً قويّةً مناديًا "الله أكبر"، وهذا ما تسبَّبَ في إيقاف اليأس عن مهاجمته حيث كان لَمَعَانُ السيفِ يجبره على غلق عينه، حينها أدْرَك السلطان شرف الدين الوضع الذي آل إليه اليأس، فبدأ بمهاجمته دون توقُّفٍ، وكان يُحاول أن يجرح هذا العدو اللدودَ في أيّ مكانٍ من جسمه، وفي اللحظة التي كان يحاول فيها بكلِّ طاقته التخلُّصَ من اليأس، لمحت عيناه الآية الكريمة المنقوشة

على السيف والتي تقول: ﴿لَاتَقۡنَطُواْمِنرَّحۡمَةِٱللَّهِ﴾ [سورة الزمر:٣٩/٥٣]، وعندها أدرك شرف الدين أنه سيستطيع التَّغلب على هذا العدو إذا ما حاربه بأملٍ وصبرٍ، وبالفعل قام بذلك، ولكنه كان قد أصيب بجروح هو وشوق، وبدأت قواهما تخور، وكان اليأس ينْثُر بقدميه الرمالَ على شرف الدين كلما سنحت له الفرصة بذلك، ولكن على الرغم من كلّ تلك السلبيّاتِ؛ إلا أنه استطاع أن يجرحَ اليأسَ -أحدَ ألدِّ أعداء الإنسان- فولّى اليأسُ هاربًا.

وبعد أن ابتعد اليأس عنهما، تنفس شرف الدين وشوق الصعداء، ثم استراحا قليلًا ليستجمعا قواهما، ولتضميد جراحهما، وعندما بدأت جراحهما تلتئم شيئًا فشيئًا؛ تابع السلطان وشوقٌ تقدُّمَهما في الصحراء من جديد، ولكن كان من الواضح أن صعابًا جمةً ما زالت بانتظارهما، تَبَيَّنَ أنّ ما اصطحبه معه من زادٍ من المنزل الذي مكث فيه قد نُثِر أرضًا أثناء عراكه مع اليأس، وأضحى من الصعب جدًّا أن يتحمل الظروف القاسية وهو جائع وعطشان.

وبينما كانت هذه الأفكار تدور في ذهنِ شرفِ الدينِ وهو يتابعُ سيرَهُ في الصحراء، التقى بالمسافرين الذين تحدّث عنهم السلطان علاء الدين، كان جميع هؤلاء المسافرين الذين أتوا

من أماكن متعدِّدة ذاهبين إلى ساحة الحياة، وكانوا يمتطون جيادًا تشبه شوقا، وحين رآهم شرف الدين لاحظ الآثار المتبقِّية على وجوههم والتي تدل على أنهم تعاركوا مع اليأس أيضًا، فعلى بعضهم آثار صفعات، وعلى بعضهم آثار رضوض وكدمات، وبعضهم الآخر ما زال وجهه مصفرًّا وكأنه رأى اليأس للتوِّ، وعندما تذكّر شرف الدين نصيحة السلطان علاء الدين حول الاتحاد والتضامن، وقف أمام جموع المسافرين وخاطبهم قائلًا:

- يا أيها المسافرون العازمون على الذهاب إلى ساحة الحياة!! إنَّ هذه الصحراءَ مليئةٌ بالمصاعب، ولا يمكن أن يتجاوزَها كلٌّ منا بمفرده، تعالوا نجمع ما نملكه من طعامٍ وشرابٍ، ونقطع ما تبقى من الرحلة سويًّا حتى نصل إلى بَرِّ الأمان.

اقتنع المسافرون بهذه الفكرة، لأنَّه من الصعوبة بمكان أن يسيرَ الشخصُ بمفرده في هذه الظروف القاسية السائدة في الصحراء، ومضى المسافرون في رحلتهم معًا، ولكن ما لبث الماء أن نفد، وبدأ القلق يساورهم، فأخذوا يقدمون الآراء لحلِّ مشكلتهم هذه، كانت المشكلة تكمن في أنَّ أحدًا منهم لم يستمع لما قاله رفاقه بل اكتفى كلٌّ منهم بأن يقول ما عنده ويُصِرَّ على فكرته دون الإنصات لآراءِ الآخرين أو أخذِها بعين

الاعتبـار، بـل إنَّ بعضَهم قال: "إذا لم تفعلوا ما أقوله فسنموت جميعًا من العطش"، ووصلت حدَّة هذه النقاشات أحيانًا إلى حدِّ التدافع والشجار فيما بينهم.

وفـي نهاية المطاف قـرّر بعض المسـافرين إكمـالَ رحلَتِهم وحدَهـم ظنًّـا منهـم أنهم اجتـازوا القسـم الأكبر مـن الصحراء، أما من تبقّى فقد قرروا السـير في طريقهم بشـكلٍ جماعيّ، ولكن ذلك لم يكن سهلًا، لأن تضامُنَهم ووحدَتَهم كانت قد تزعزعت، وكان شـرف الدين ومنْ تبقّى معه قَليلِي العدد والعتاد، ولم يكن قد تبقّى معهم أيُّ شيءٍ من الطعام والشراب... تُرَى أيّ صعوبات ما زالت بانتظارهم؟!



الغرق في الرمال

لـم يَـدُم تأثيـر نصيحة شـرف الدين كثيـرًا على المسـافرين فقـد انفصـل أغلبهم عـن المجموعة بعد أوّلِ صعوبـةٍ واجهتهم، وقـد رَغِـبَ المسـافرون المتسرِّعون الذيـن لـم يتحلّـوا بالصبر في اجتياز الصحراء قبل غيرهـم مُعتقدين أنّهم قاربوا على الخروج منها، فامتطى كلُّ واحد منهم صهوةَ جوادِهِ وابتعدَ مسـرعًا، وكان شرفُ الدين ومن تبقى معه من المسافرين يراقبونهم عن كثب.

تقدم المسـافرون في الصحراء بسرعةٍ غير مُدركينَ للأخطار التـي تنتظرهـم فـوق رِمَالهـا المُلتهبة، وهم في غفلـة عن الرمال المتحركـة التـي كانت تنتظرهم، أما شـرف الدين ومـن معه فقد تابعـوا طريقهـم بخطًـى ثابتةٍ بشـكلٍ جماعيٍّ، وبعـد مرور بعض من الوقت اقتربوا من المسـافرين الذين انفصلوا عن المجموعة، اندهش شرف الدين ومجموعته من اللقاء بهم بعد مرور مُدةٍ زمنيةٍ

قصيـرة علـى انفصالهـم عنهم، وقد كان مـن المُفترض أن يكون هؤلاء المسافرون الذين تكبّروا عليهم وابتعدوا عنهم مسرعين قد قطعوا مسافاتٍ أكبر ووصلوا إلى أماكنَ أبعد، وبعد أن أبصروهم عن قُرب أدركُوا أنهم قد غاصوا في الرمال ولم يَعُد باستطاعتهم التَّقـدمَ ولـو لخطوةٍ واحـدةٍ، لقد كانت الرمـال المتحركة خطيرةً جـدًّا لدرجة أنهـا كانت تَبْتَلـعُ مَـن يقـع فيها رويدًا رويـدًا، حَزِنَ شـرف الدين وأصدقاؤه كثيرًا على هـذا الوضـع، وحينما وصلوا إليهـم كان المسـافرون الذيـن فضَّلـوا الاسـتعجال علـى الصبـر قـد غرِقُـوا جميعًـا فـي الرمـال، وحينمـا رأى المسـافرون عاقِبةَ أصدقائهـم تأثـروا كثيـرًا وقالوا: "ليتَهـم ما فضَّلـوا العجلة على الصَّبر، وليتَهم ما انفصلوا عن المجموعة".

وبناءً على هذه الأحداث تذكَّر شـرف الدين ما قاله السلطان عـلاء الديـن بـأن عليه أن يتقـدّم في طريقـه بحذرٍ إلـى أن يصل إلـى الخنـدق، وأدرك أن عليهـم أن يعبروا بحذرٍ شـديد المنطقةَ التـي غرق فيهـا أصدقاؤهم، ولذلك قاموا بربـط بعضهم البعض بحبـلٍ قـويٍ بعـد أن لفُّوا ذلـك الحبل على خواصرهـم، وكانت غايتهم من وراء ذلك هي سحب كل من تُهدِّده الرمال المتحركة بالغرق، وسـار الجميع خلف شـرف الدين، وبدؤوا التقدُّمَ ببطءٍ

وهـم يراقبـون خطـوات شـوق، وكأن هنـاك مسـارًا ضيقًـا مُعَيَّنًا فـي هـذه الصحـراء يسـيرون عليـه بحـذرٍ شـديدٍ جـدًّا، وكأنهم يحاولون اصطيادَ طائرٍ دونَ أنْ يُفزعوه فيهرب.

وعندمـا لمحـوا الأشـجار مـن بعيـد أدركـوا أنهم شـارَفُوا على اجتياز الصحراء، وكان بإمكانهم اجتيازُ ما تبقّى من الصحراء فـي غضون دقائق، لكـن رغبةَ من انفصلوا عنهـم أن يكونوا أوّل من يجتاز الصحراء مـع السرعة التي بدرت منهم أودَتْ بحياتهم، وهذه المشـاعر كانت تعتري شـرف الدين أيضًا، ففكّر للحظات لـو أنه يَحُثُّ شـوقًا، ويعْبُـر ما تبقى من الصحـراء المترامية أمامه فـي وقت قصير، وكان هناك آخـرون أيضًا خطرت ببالهم الفكرة نفسـها، لأن الحبل الذي يربطهم ببعض كان يشـتدّ تارةً ويرتخي تارةً أخرى.

وفـي نهايـة المطـاف تغلّبـت تلك المشـاعر علـى بعضهم، فقامـوا بحلِّ الحبال من ظهورهم، وبدؤوا الجري، راقب شـرف الديـن مطوّلًا هؤلاء المسـافرين الذين بـدؤوا بالابتعاد عنه، كان عليه ألّا يسـتعجل على الرغم من رؤيته نهاية الطريق، وأنْ يتابـع تقدُّمـه الحـذِر إلـى أن يجتاز الصحراء بكاملها، فـي اللحظة التي كان يراقب فيها السـلطان شـرف الدين المسافرين الذين انفصلوا

عن المجموعة للتوّ، تساءل بينه وبين نفسه قائلاً: "هل سنلتقي معكم ثانية يا ترى؟"

عندها بدت من بعيد ملامحُ الخندق الذي أخبر عنه السلطان علاء الدين.



نُسور الصحراء

تابَـع شـرف الدين ومـن تبقَّى معه من المسـافرين سـيرهم باتجـاه الخنـدق، ومـع اقترابهم بدؤوا يسـمعون أصواتًا تَقْشَـعِرّ لهـا الأبـدان خـاف منهـا المسـافرون وجيادُهم على حدٍّ سـواء، وتسـاءَلوا دون أن يُفصحـوا عـن مخاوفهـم: تُرى هل هـذا نذيرٌ بوحشٍ جديدٍ ينتظرهم؟

وأخـذوا يتفحّصـونَ مـا حولهـم برعـب، لقـد كانـت هـذه أصواتًا لنسـورِ الصحراءِ التي هاجمتِ المسـافرينَ الذينَ انفصلوا عـن المجموعة من قبل، كانت أحجامهم كبيرةً وأعدادهم وفيرةً، حتى بَدَوا كغيمةٍ سـوداءَ غَطَّتِ السماء، يُرافقهم صفيرٌ قويٌّ جدًّا، بدأ شرف الدين ورفاقه بالتضرُّعِ إلى الله سرًّا أنْ يُخرجهم من هذا المأزق سـالمين، وأصوات أجنحة النسـور وهي تحتكُّ فيما بينها تغمر المكان بضجيجٍ أحسُّـوا معه كأنهم يقفون تحت شلال مياهٍ هادرٍ والغبار يعجُّ بالصحراء كلها من حولهم!

هرب اثنان أو ثلاثة من المسافرين من بين المجموعة بصورةٍ هستيرية نتيجةً لنوبة الرُّعب التي أصابتهم، ولكنّ النسورَ ما أن رأتهم حتى انقضَّتْ عليهم بوحشيةٍ وعنف، فقتلت أحدَهم بضربةٍ من منقارها غرسته في جسدهِ، وحملت آخرَ بمخالبها وطارت به بعيدًا، تحوَّلَ الموقف إلى مأساةٍ عظيمةٍ بالنسبة للباقين؛ وقد أصبح الجميع عديمي الحيلة نتيجةً لما حلّ بهم من رعبٍ شديدٍ.

أما شرف الدين الذي كان يتابع كلَّ ما يجري أمامه، فقد أخرج قوسه وجهَّز سهمًا بداخله، وعندها وقعت عيناه على الآيات المنقوشة على السهام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ [سورة المائدة:٥/٨]، وأدرك حينها أنّه لا سبيل أمامهم سوى الوحدة للتخلص من النسور، فلقد ضعفت قوتهم بسبب تخلّيهم عن الوحدة فيما بينهم وبسبب تحرُّكهم بشكلٍ فردي، ولكن لم يكن هناك وقت للإفصاح عن هذه الحقيقة، ولم يكن هناك من يستمع إليها في هذه الظروف العصيبة.

انضمّ شرف الدين إلى من تبقّى من المسافرين، واختبأ معهم خلف كومة صخور، وفي هذه الأثناء كان سِرْبٌ من النسور يتّجه بسرعة نحو شرف الدين، وكان عليه أن يتصرَّف سريعًا، فبدأ

يرميهم بالسهام التي لم يُخطئ أيٌّ منها بل كانت تصيبُ النسورَ الواحدَ تِلْوَ الآخرِ، وعندما رأى المسافرون الذين تفرقوا يمنةً ويسرةً شرفَ الدين وهو يقاتل النسور، تغلّبوا على خوفهم قليلًا، وبدؤوا يتجمّعون حوله، لم تستطع النسور مقاومة سهام شرف الدين كثيرًا، وفي النهاية لاذت بالفرار، بينما كان صفيرهم يشقّ عنان السماء.

وهكذا استطاع السلطانُ ومن احتمى به من المسافرين النَّجاة من هجمات النسور التي أصابتهم ببعض الجروح، إضافة إلى ما نالهم من تعبٍ وإرهاقٍ، ولكن التوقُّفَ لم يكن الخيار المناسب الآن وقد بات خندق الصبر قريبًا جدًّا منهم.



خندق الصبر

كان شـرف الدين كلَّما اقتـرب من الخندق يقول فَرِحًا: "إنه الخندق الذي تحدّث عنه السلطانُ علاء الدين"، وملأت الطمأنينة قلبه عندما رأى باب الخندق الذي كان يضاهي في روعته أبواب القصـور البهيَّـة، كان أول مـا رآه شـرف الدين هو الآيـة الكريمة المكتوبة على مدخل الخندق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٣/٢٠٠].

بعـدَ أن دخـل شـرف الدين مـع جوادهِ شـوقٍ إلـى الخندق ارتـاح قليـلًا، فكان النسـيم العليل يملأ جنبات الخنـدق وكأنّهم في أيام الربيـع، والأمان يسـود كلَّ مكان داخل الخندق الذي بدا لهم وكأنه قصرٌ عامرٌ، شعر شرف الدين وأصحابُه وكأنّ الصحراء قـد انشـقَّت وظهر أمامهـم وادٍ خصيب، فيه ما يكفـي من الطعام والشـراب لإتمـام الرحلة التي سـتنتهي هـذه المرحلـة منها عند اجتياز الخندق ونهاية الصحراء.

رأى شرف الدين أنه من الأفضل أن يُمضي ليلتَه في الخندق لينال قسطًا من الراحة، وهكذا كان حال من معه من المسافرين الذين خلد بعضهم إلى النوم بمجرَّد دخولهم إلى الخندق.

بعد صلاة العشاء قرأ شرف الدين آيات من القرآن الكريم ودعاءَ الجوشن لبعض الوقت، ثم استلقى على ظهره وأخذ يراقبُ السماء، كان يشاهد النجوم المتلألِئَةَ في السماءِ من جهةٍ، ويفكّر برحلته من جهةٍ أخرى، ويتساءل إن كان سيتمكّنُ من الوصول إلى ساحةِ الحياةِ أم لا؟ لقد كانت لديه رغبةٌ عارمةٌ في تغيير أحوال بلاده، وبعد تأمُّلٍ طويلٍ تذكَّرَ الآيات الكريمة التي أنقذته منذ بداية الرحلة: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [سُورَةُ الزمر: ٣٩/٥٣]، و﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ [سُورَةُ المائدة: ٥/٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَان: ٣/٢٠٠].

بينما كانت هذه الأفكار تجولُ في خاطر شرف الدين إذ غطَّ في نومٍ عميقٍ، ولم يستيقظ إلا على صوت الأذان فجرًا، فتوضَّأ على الفور وهمَّ لصلاة الفجر التي جلبت إلى قلبه السكينة والطمأنينة مع النسيم العليل الذي كان يهبّ في ذلك الصباح، وبعد أن أدّى صلاته مكث لبعض الوقت في موضعه، وتضرّع بالدعاء إلى رب العالمين لكي يوفقه فيما تبقى من رحلته، كان

عليه بعد الانتهاء من الصلاة والدعاء أن يبدأ في تجهيز "شوق" والبدءِ في المسيرِ والتقدّمِ عبر الخندق لإيجاد الشخص الذي تحدث عنه السلطان علاء الدين، والذي سيزوّده بالمعلومات المتعلِّقة بما تبقّى من الرحلة، ومع تقدمه في الخندق أحسَّ السلطان أن "شوقًا" متحفزٌ ليسرع في مشيته وكأنه يريد أن يخرج من الخندق على عجلٍ وينطلق في سباق مع الريح.

وبعد أن واصل شرف الدين سيره في الخندق بدأ يرى أناسًا من مختلف الأعمار في أرجائه، وفي أحد جوانبه وقعت عيناه على جمهرةٍ من النّاس، فاتّجه نحوهم، وعندما اقترب منهم وجدهم يتحلّقون حولَ رجلٍ مُسِنٍّ مُنصتينَ إليه باهتمامٍ، فانضم إليهم حتى يتمكنَ من سماع ما يقوله لهؤلاء الناس.

كان هذا الرجل المُسن يتحدث عن رحلة ما، وعندما أنصتَ شرف الدين جيدًا إليه لاحظ أنه يتحدّثُ عن الطريق إلى ساحة الحياة، لقد كان هذا الرجل المسنّ الذي يَشُعُّ النورُ من مُحيّاه يعرف تمامَ المعرفة كلَّ تفاصيلِ الطريقِ الذي تمّ قطعه منذ بدايته إلى هنا، وذكّر من يستمع إليه كم كانوا ناجحين أثناء رحلتهم، وتحدَّث عما يجب عليهم فعله من الآن فصاعدًا، وعندما سمع شرف الدين هذا الكلام بدأ يُراوده شعورٌ بأنه كان أكثر المسافرين

نجاحًا أثناء هذه الرحلة، لم يكن الرجل المسنّ قد انتهى من حديثه حينها، وكان لديه الكثير مما سَيُحدّث به الآخرين، ولكنه في تلك اللحظاتِ -التي كانَ الغرورُ قد بدأ يتسلَّل فيها إلى نفسِ شرف الدين- توجَّه الرجل المُسِنُّ إلى الناس قائلًا:

إن ألدَّ أعدائكم بعد خروجكم من هذا الخندق هو الغرور، مِنَ الخطأ الجسيم أن يتعالى أحدكم على غيره، بعد هذا الخندق ستجدون أمامكم نهرًا عليكم عبوره، وقبل أن تصلوا إليه ستجدون واديًا صغيرًا، عليكم أن تعبروا هذا النهر سويًّا، بل عليكم أن تتشاوروا فيما بينكم حول كيفيّة عبوره، وأثناء عبوركم للنهر يتوجَّبُ على الجميعِ أن يُؤَدِّيَ ما وُكِلَ إليه من عمل على أكمل وجه.

ارتعد شرف الدين من حديث هذا الرجل، وبدأ يتساءل إن كان هذا هو نفس الرجل الذي تحدّث عنه السلطان علاء الدين والذي سيَدُلُّه على ما تبقى من طريق؟! فقد تأثر كثيرًا بحديثه كغيره من المسافرين الذين التفُّوا حولَه، واقترب شرف الدين منه أكثر، وبدأ يستمع إلى ما يقوله باهتمامٍ أكبر، كان الرجل المُسن حينما يتكلم ينظر إلى الأفق، ويتحدَّثُ بهدوءٍ وبثقةٍ عالية، وبدا صوته هادئًا لكنّه ليسَ ضعيفًا، وحاسمًا دون حِدَّةٍ، مما مَنَحه قدرةً

عاليـةً علـى التأثير في الآخرين وإقناعهم، لـم يكن واضحًا تمامًا فيمـا إذا كانـت عينـاه مفتوحتيـن أم مغلقتين، وكان يرتـدي رداءً بسيطًا ونظيفًا مـع كونه رثًّا وقديمًا، وعِمامةً بيضاء فوق رأسه تبدو وكأنها ثلوجًا تُغطّي قِمَمَ الجبال، نعم، إنه بالتأكيد الرجل الحكيم الذي كان من المفترض أن يصادِفَهُ شرفُ الدين في خندق الصبر.

وعلى حين كان شرف الدين يُفكِّرُ في خواطره هذه؛ تَحدَّثَ الرجل الحكيم عن قصرٍ سيلجأ إليه المسافرون للتخلُّصِ من عدوٍّ سيواجههم عند عبورهم تلّةً تقـعُ خلف النهر الذي سيُقابلونه في طريقهم، إلا أنه لم يخبرهم كيف ومتى سيجدونه، قبّل المسافرون يدي العجوز بعد انتهاء حديثه وكذلك قبّل شرف الدين يده آملًا أن يدعو له الرجل الحكيم هو أيضًا، ولكن الرجل المسـنّ سـبقه بالدعاء له دون أن يطلب منه، ووضـع يده على كتف شرف الدين قائـلًا: ''أنـارَ الله دربـك يا ولدي، إيـاك أن تُصـابَ بالغرور مهما كانت الأسباب''، كان هذا الدعاء مفاجئًا بالنسبة لـ"شرف الدين"، وأكمل طريقه وهو يَكِنُّ كلّ احترامٍ وتبجيلٍ لذلك الرجل المسنّ.

لقد كان المسافرون الذين تركوا خندق الصبر مرتاحين تمامًا، فقد أتمُّوا اسـتعداداتهم للسـفر جيّدًا، وانتابهم إحساس بالسعادة الغامـرة والفخـر لِتَمكُّنهم من الوصول إلى هذا المكان سـالمين

نظرًا لقلّةِ الواصلين إليه، وقُبَيلَ البدء بالسفر كانت السعادة التي يشعرون بها قد تحوّلت إلى ثقةٍ بالنفس رويدًا رويدًا، لكنهم لم يُدرِكوا كمَّ المصائب التي سيجلبها لهم هذا الشعور المُفرِط بالثقة بالنفس، مع أنهم استمعوا إلى نصائح الرجل المُسِنّ بهذا الخصوص منذُ قليل، وبمجرَّدِ خروجهم من الخندق بدأت مشاعر التكبُّرِ والغرورِ تعتريهم وأحاطتهم بإحساسٍ من التشاؤم وكأنها تنبئهم بالأمور السيئة التي تنتظرهم.



تيار النهر الجارف

بعد أن غادر المسافرون الخندقَ وجدوا أنفُسَهم في مكانٍ رَحبٍ وشاسع كانت الغابات تُحيط بالطريق من جانبيه، ولم يكن المسافرونَ قد حدَّدُوا بعدُ الاتجاهَ الذي سيسيرون فيه للوصولِ إلى النهرِ الذي تحدَّثَ عنه الرجل الحكيم، بعد برهةٍ من الزمن بدأت أصواتُ المسافرين تعلو، وبدأ أغلبهم بالسير في عدَّةِ اتجاهاتٍ دون مشاورة الآخرين، وكأنهم لم يستمعوا منذ ساعاتٍ قليلةٍ إلى ذلك الحكيم وهو يُحذِّرهم من تصرُّفٍ كهذا، لقد نَسُوا سريعًا أنَّ اتّحادهم هو أفضلُ سلاحٍ لديهم، أما شرف الدين الذي كان يُراقب المسافرين الذين انفصلوا عن المجموعة، فقد تذكَّرَ نصائحَ السلطان علاء الدين والرجل المُسنّ، فاعترضَ سبيلهم، وقال لهم:

- لا نعرف ماهيَّة المخاطر التي تنتظرنا، دعونا نبقى معًا حتى نجد النهر ونَعبُرَ إلى الضفّة المقابلة، فمهما كانت المخاطر التي تنتظرنا فسوف نتمكّن من التغلُّبِ عليها طالما أننا متّحدون.

استهزأ أغلب المسافرين بكلام شرف الدين، وواصل كلّ واحد منهم سيره كما يحلو له، فاتّجه بعضهم إلى الغابة الواقعة إلى يمين الوادي، وبعضهم إلى الغابة الواقعة إلى يساره، وغابوا عن الأنظار بين الأشجار، وعندما رأى شرف الدين عدمَ مبالاتهم، بدأ هو أيضًا يظُنُّ أنَّ بإمكانه إكمالَ الطريقِ وحدَهُ، وأنه ليس بحاجةٍ إلى أحدٍ منهم، ولكنه تذكَّر على الفورِ أنه لم يَقْدر منذ البداية على الاستمرار في الرحلة إلا عندما طبَّق النصائح التي قُدِّمت له، وكان يحاولُ ألا ينسى أن التصرُّفَ الفردي دون استشارة الآخرين سيتسبب في مصاعبَ شتَّى وأنه قد يؤدي إلى إنهاء الرحلة قبل الأوان.

على الرغم من حزنه على عدم استماع أغلب أصدقائه له إلا أنه لم يعد لديه خيار آخر سوى متابعة الطريق مع من بقي من مسافرين استجابوا لنصحه، وبدؤوا السير في الوادي وهم يسابقون الريح بجيادهم، وصل المسافرون إلى حافة ساقيةٍ صغيرة، فبدأ السلطان شرف الدين يُتابع سيره مع الساقية وهو

يقول: "أظنُّ أنَّ هذه الساقية ستقودنا إلى النهر الذي تحدّث عنه الرجل المسن"، كان شوقٌ يسابقُ الريحَ وهو يسيرُ إلى جانب الساقية متبوعًا بالبقية، ولم يكن السلطان شرف الدين مخطئًا في توقعاته؛ فقد وصلوا في نهاية المطاف إلى حافة النهر الذي تحدَّثَ عنه الرجل المسنّ، ولكنّه كان يبدو عميقًا جدًّا، ومتدفقًا جدًّا يحمل تيّارُه الهائجُ كلَّ ما يقف في طريقه؛ حتى جذوع الأشجار الضخمة لم تَسْلم من قوَّته الجارفة.

نعم، وجد المسافرون النهرَ الذي كانوا ينتظرونه، ولكنهم الآن عالقون على إحدى ضفّتيه يفكّرون في طريقةٍ لعبوره، خطر لـ"شرف الدين" أن يحاول معرفة عمق النهر؛ فترجَّلَ من على حصانه، والتقطَ بعض الحجارة الضخمة وألقى بها في مياه النهر، فصدرت عن تلك الحجارة أصواتٌ كتلك التي تُسمع عند إلقاء الحجارة في بئرٍ عميقة، ثمّ إن الضفّة الأخرى كانت على مسافةٍ بعيدةٍ منهم، لم يكن بيد المسافرين أن يفعلوا شيئًا سوى محاولة إيجاد ممرٍ يعبرون من خلاله إلى الضفة الأخرى، ولكنهم ظلُّوا على حافته يتقدمون تارةً ويتراجعون تارةً آملينَ أن يعثُروا على طريقةٍ للعبور، فلا بدَّ أن تكون هناك طريقة يتخطَّون بها هذه العقبة.

وبينما كان المسافرون يفكِّرون بما يمكنهم فعله كانت مياه النهر تسير بسرعةٍ جارفة، فمن العسيرِ العبورُ إلى الضفةِ المقابلة سِباحةً؛ ولذا امتطى المسافرون صهواتِ جيادهم، وتابعوا مسيرهم مع النهر باحثينَ عن مكان تكون مياهه أكثرَ هدوءًا وسكونًا، ولكن النهر كان في هذا المكان أيضًا عميقًا جدًّا، ولم يتجرَّأ شرف الدين وأصحابه على عبور النهر سباحة من هذه النقطة أيضًا، في النهاية قرروا أن يصنعوا زورقًا يَعْبُرون النهر بواسطته، وقد أعجبت الفكرةُ جميعَ المسافرين، ولم يكن أمامهم في الواقع خيارٌ آخر، بدؤوا يبحثون في الجوار عن أشجارٍ مناسبةٍ لصناعةِ الزورقِ، وأخذوا يربطونها ببعضها البعض بواسطة أغصان اللبلاب[٢]، استخدم شرفُ الدين السيفَ الذي منحه إيّاه السلطانُ علاء الدين ليَقْطَع به أغصان اللبلابِ، ومع كلِّ ضربةٍ يضرِبُها تترسَّخُ في ذهنه تلك النصائح الغالية التي وجهها له.

أصاب التَّعبُ المسافرين نتيجةً للعملِ الشاقِ الذي قاموا به والجهد الذي بذلوه في صناعة الزورق، كذلك الحال مع السلطان شرف الدين الذي جلس هو أيضًا تحت ظلّ شجرةٍ

(٢) نوع من أنواع الأشجار ذات الغصون الكثيرة والكبيرة والسميكة الخضراء.

قريبةٍ لينال قسطًا من الراحة، وبينما كان يراقب زَبَدَ مياه النهر التي كانت تجري بسرعة رَنَتْ عيناه بعيدًا، فرأى بعض الأشخاص يقتَرِبون من المكان الذي يتواجد فيه، وعندما دقَّقَ النظر فيهم أدرك أنهم من المسافرين الذين انفصلوا عن المجموعة وساروا في اتجاهاتٍ مختلفةٍ بعد خروجهم من خندق الصبر، كان يبدو على وجوههم التعب الشديد ونال الإرهاق من أجسادهم، وكان البعض منهم مصابًا بجروح، وكأنهم تعرّضوا للهجوم من قبل الحيوانات البرية التي تعيش في الغابة، كان شرف الدين يشعر بالغيظ من هؤلاء المسافرين لإعراضهم عن النصيحة التي وجَّهها لهم بعد خروجهم من الخندق وإصرارهم على التصرف وحدهم دون استشارة البقية؛ فلم يُظهِر اهتمامًا بمجيئهم، ونهض من مكانه وكأنَّه لم يَرَهُم قطّ، وتابع قطع اللَّبلاب الذي سيستخدمه في صناعة الزورق، بل إنه فكّر بعدم مشاركة أولئك القادمين في الزورق الذي صنعه هو وأصحابه، وخطر له أن يقول لهم: "ما دمتم قد فضَّلتم الانفصال عن المجموعة والتَّصرف بشكلٍ فرديّ فعليكم أن تتدبَّروا أموركم"، ولكن الكتابة التي رآها على إحدى الأشجار أثناء قطعه اللبلاب لفتت انتباهه، لقد كان مكتوبًا على تلك الشجرة الحديث الشريف: "خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ للنَّاسِ"، وعندما رأى شرف الدين هذا الحديث

شَعَرَ وكأنَّ صاعقةً قد ضربته، فدَمْدَم قائلًا: "ما الذي أفْعَلُه؟؟ لقد كنْتُ على وشكِ الانغماسِ في مُستنقعِ الأنانيةِ، وكنت على وشكِ أن أُضيِّعَ فرصةَ أن أكونَ إنسانًا صالحًا حينما فكّرت في نفسي فقط".

وترك العمل الذي كان يقوم به وسَارَعَ إلى مُساعدة المُسافرين الذين تَجمَّعُوا حوله، وأبْدَى اهتمامًا بكلّ واحدٍ مِنهم، وحاول أن يرفع مِن مَعْنَويّاتهم جميعًا، كذلك فَعَلَ المسافرون الآخرون وسارَعوا لمساعدة زملائهم الجرحى، فَضَمَّدوا جِراحهم وأمّنوا الراحة لهم، وبعد ذلك قال شرف الدين لزملائه إنه يَجب عليهم أن يصنعوا زورقًا أكبر يتَّسع للمسافرين الذين انضمّوا إليهم مجدّدًا، ووزّع عليهم المهام ليجمعوا أغصانًا أكثر ويقطعوا المزيد من اللّبلاب، وفي النهاية توحّدت جهود الجميع فصنعوا زورقًا كبيرًا يتّسع لعشرين شخصًا إضافةً إلى جِيادهم، كان من الممكن أن يَتْرُك المسافرون الجياد تعبُر النهر سباحة، ولكن لم يشأ أحدهم أن يُعرِّض حياة جَوادِهِ للخطر بانْجِرافِه مع تيّار النهر الغَادر.

وبعدَ مرورِ عشرة أيامٍ استكملَ المسافرونَ صناعةَ الزورقِ، ووضعوا في جانبيه عشرين مِجْدافًا، وقُبَيل ركوبهم الزورق خاطبَ شرفُ الدين جُمُوعَ المسافرينَ قائلًا:

يجب على الجميع أن يُجدِّف بقوةٍ لِكَي نَصِل إلى الضِّفة المقابلة سالمين، فالمياه في هذا المكان وإن بَدَت هادئة إلا أن تيارها قويّ، أيُّها الأصدقاء علينا جميعًا أن نَعْبُر إلى الضفة المقابلة الآن، كان الله بعوننا جميعًا، فلتسامحوا بعضكم البعض اعتبارًا من هذه اللّحظة، وبالنّسبة لي فأنا أُسَامحكم جميعًا.

بعدَ سماعِ هذا الحديث تبادلَ المسافرون عباراتِ التَّصالح والتَّسامح ثم توجَّهوا إلى الزّورق، فاحتلّ كُل واحدٍ منهم مكانَه على أطرافِه لضمان توازنِه ووقفت جيادُهم في مُنتصفه، التقط كل مُسافر مِجْدافَه، واستعدّ الجميع في مواقعهم يُعدّون أنفسهم للتّجديف بكلّ قوةٍ وعزمٍ وتناغمٍ حتّى يَنجو بحياتهم من تيار النهر الجارف، وما أن انقطع حبل اللَّبلاب الذي كان يربطهم بالضِّفَّة حتى بدأ هذا الصّراع الجديد في رحلتهم.



عندما نتخلى عن المجاديف

جدّف المسـافرون بكلّ قُوّتهم، وسـارَ الزورق مـع النّهر في هـدوءٍ دون الكثيـر مـن الاهتـزاز أو التّمايُـل لأن الجميـع كانوا يعملـون في انسـجامٍ تـامّ أَوْصلَهم إلـى مُنتصف النَّهر بِسـلام... وحينها بدأَ الغُرور يَدْخُل قلوبَ بعض المسافرين إضافةً إلى عدم الشـعور بالمسـؤلية؛ فتوقّفُوا عن التَّجديف ظنًّا منهم أنّه لا حاجة لـكلّ هذا الجهـد، بل إن بعضهم دلّوا أقدامهم في الماء يمْزحون ويتضاحكـون ويأتُون بأفعالٍ غريبةٍ لا تُناسـب الموقف حتى قال بعضهم باستخفاف:

- لا يوجـد هنـاك مـا يُخيف، لقد أضعنا عشـرةَ أيّـامٍ ونحن ننتظرُ عبورَ النهر ولـم تكن هناك أيّة حاجة لذلك.

أمّا البعض الآخر فقد رَمى مِجدافه في النهر وهو يقول:

- إن عدَدَنـا كبيـرٌ بمـا يَكفـي وإنْ توقّـف شـخصٌ أو اثنـان عن التّجديف فلن يغيّر ذلك في الأمر شيئًا.

وبازديـاد أعداد الذين رَمَـوا مجاديفهم في النّهر بدأت حركة الزورق تختلُّ شيئًا فشيئًا، عندها لاحظَ شرف الدين بَدْء انجراف الزورق مـع التيار فخاطب المسافرين الذين معه قائلًا:

- ماذا تفعلون يا أصدقاء؟ إذا ما تركتم المجاديفَ فإننا جميعًا سـننجرف مـع التّيار، أرجو أن يعودَ كلُّ واحد منكم إلى عمله... انظروا!! حتى الجيادُ بدأت تتأثّر.

ضحِكَ أحدُ المسافرين الذين وضعوا أرجلهم في مياه النهر، وقال "لشرف الدين":

- يـا أخي! لـم يَبْقَ الكثيـرُ لنَعْبُر إلـى الضفّـة المقابلة، دعنا وشـأنَنا فقـد لا نَجِد فُرصةً أخرى للاسـتمتاع بميـاه النهر، اتركنا نلهو قليلًا، لماذا أنت قَلِق؟

وفـي هـذه اللحظـة اهتَزَّ الـزورق نتيجـةَ اصطدامِـه بإحدى الصخـور ممـا أدّى إلـى وقـوع شـرف الديـن فـي النَّهـر قبـل أن يُجيـب على هذا السـؤال؛ لأنه هو أيضًـا كان قد تركَ مجدافه أثنـاء حديثه مـع المسـافرين، ومـع اختلالِ توازنِ الـزورقِ وقـعَ أغلـبُ المسـافرين فـي النهـر، وكان هنـاك من تمسّـك بالزورق واستطاع البقاء على ظهره، ولكن التيّارَ جرفهم أيضًا مـع الزورق وهـم مصابونَ بالذعرِ والهلـعِ.

انجرف شرف الدين مع مياه النهر العاتية لبعض الوقت، وأُصيب ظهرُه بعد اصطدامه بصخرةٍ في النهر، فقفز "شوق" إلى النهر عندما رأى صاحبَه يُقاوم المياه، وبعد صراعه مع التيار الجارف ومقاومتِهِ قوَّةَ النهرِ استطاع في النهاية أن يُنقذ شرفَ الدين ويُوصلَه إلى الضفة المقابلة، لقد ساعد شرفَ الدين، وحملَه على ظهره، وبدأ البحث عن مكان يلجآن إليه، وكان شرفُ الدين الذي انْطَوى على نفسه نتيجة الآلام التي كان يعانيها في ظهره يشعر بألمٍ شديدٍ وهو على صهوةِ شوق، ثم ما لبث أن ألقى بنفسه أرضًا بعد أن أوقفَ شوقًا، لقد ظن شرف الدين أن ظهره قد أُصيب بكسور، وكان يَجِد صعوبة في الوقوف على قدميه، وينتابه ألمٌ شديدٌ عند المشي، اقترب بصعوبةٍ بالِغةٍ من أحد الينابيع ليَشرب الماء، وفي الوقت الذي اتكأ فيه على سيفه وجثا ليشرب الماء من النبع رأى الآية الكريمة المنقوشة على السيف: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [سورة الطلاق: ٦٥/٣].

أعادت هذه الآية شرف الدين إلى وعيه في الوقت الذي كان فيه اليأس قد بدأ يُساوره نتيجة الحالة التي كان فيها، وحينها أدرك أنه لا يستطيعُ اللجوءَ إلا إلى الله، فتوجَّه بالدعاء إلى ربه ليعفو

عنه وقال: "نحن لم نثق بك، بل وثقنا بقوّتنا وبِعدَدِنا ونَسينا الذّات الإلهية التي كان علينا أن نثق بها، ربي!! إنّك لم تنسَنا ولو للحظة واحدة، أسألك أن تعفو عن خطئي وتصفح عني".

كان شرف الدين يدعو ربّه ويطلب العفو من جهة وهو يُكَفْكِف دموعَه من جهة أخرى، وبعد أنْ انْتَهى من دُعائِه المُخلص لربِّه شَعر أنّ آلام ظهرِهِ قد خفَّت، فأدى صلاة شُكرٍ لله تعالى امتطى بعدها جواده وتابع المسير.

وقبل الغروب بقليل بدأ شرف الدين يسمع صوت أذانٍ صادر من مكانٍ قريب، وعندما اقترب أكثر من مَصْدر الصوت وجد قلعةً حصينةً وكبيرةً كُتِبت على بوّابتها الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة المائدة: ٥/١٠٥].



ليلة في القلعة

عندما دخل شـرف الديـن إلى القلعة تذكّر مجـددًا ما جَرى في النهر، فشعر بحُزنٍ عميقٍ جرَّاء ذلك، كان يعاتب نفسَه لأنّه تَركَ مِجدافـه وكان عليه ألا يتركه حتّى وإنْ ترك الآخرون مَجاديفهم، كان عليـه أن يُتابـع أداء عملـه مهمـا حصـل، وينتظـر التوفيـق من الله، وكان عليه ألَّا يتوقّف عن التجديف أبدًا حتى ولو كان توقّفه فـي سـبيل تحذير رفـاقِ دربه، ففـي الوقت الـذي أراد فيه تقديم النصـح لزملائه توقف عن اسـتكمال المهمـة الـمُوكلة إليه، وهو مـا أدى إلى كارثة، لقد أنقذ نفسـه بصعوبة بالغة، ولكن من يعلم ما الذي أصاب بقية رفاقه؟؟

انتهـى المؤذن مـن رفـع الأذان، وبدأ الـمُصلّـون يجتمعون لأداء الصلاة، هرَع السـلطان شـرف الدين إلى المسـجد والتَحق بجُمـوع المصليـن، وقد أدخل القرآن الكريـم الذي تمت تلاوته بعـد الصـلاة السـكينةَ والطمأنينـةَ إلـى قلبِهِ، مكث شـرف الدين

في المسجد لبعض الوقت بعد مغادرةِ المصلينَ، وتضرَّع بالدعاء لربـه، وقبـل خروجـه مـن المســجد التفـت يمينًـا ويســارًا فرأى بعضًــا مــن أصدقاء دربه ممن كانــوا معه على متــن الزورق وهم يتوجّهون بالدعاء إلى الله، لم يكن هؤلاء المســافرون ممن تخلّوا عــن مجاديفهــم وجَرَفَهُــم التيار مع الزورق، ففرح شــرف الدين كثيرًا لرؤيتهم سالمين، وعندما اقترب منهم وجدهم أيضًا مصابين بجـروحٍ مثلَـه، وعلـى الرَّغـم مـن أنهم اسـتطاعوا النّجـاة إلا أن البعض منهم وأثناء مصارعته مياه النهر أصيب بجروح في ظهره، والبعـض أصيب بجـروح في يديه أو في قدميـه، والبعض الآخر انجرفت جياده مع التيّارات العاتية، بينما خارت قوى عددٍ منهم حتـى أضحَـوا غيرَ قادرين على اسـتكمال الرحلـة، ولم يكن أيٌّ من المســافرين الذين ســارعوا باللهو واللعــب وتركوا مجاديفهم موجودًا في أنحاء المسجد.

قرر شــرف الدين قضاء الليل في القلعة والبحث عن شخص يَصِفُ لهُم ما تبقّى من الرحلة، وكان لديه شعورٌ بأن مسافةً قصيرةً كانت تفصله عن ســاحة الحياة، ولكنه لم يكن يعلم أيَّ شــيءٍ عن المصاعب التي تنتظره من الآن فصاعدًا، لأنه لم يكن قد حصل بعدُ على المعلومات المتعلقة بما تبقى من الرحلة، فكر شرف الدين في

تلك الليلة بساحة الحياة حتى غفَت عيناه، حيث قال بينه وبين نفسه بأنه سيتغلب على كل المخاطر التي ستواجهه وسيتجاوزها بكل حرصٍ وعزيمة، فنام وهذه الأفكار تدورُ في خلده.

وفي الصّباح استيقظ على صوت الأذان، فنهضَ فورًا وبعد أن توضأ ذهب إلى المسجد، وأدى الصلاة وبدأ يبحث عن شخصٍ يُجيب عن أسئلَتِهِ، التقى ببعض الأشخاص وشرح لهم الموضوع، ولكنهم كانوا جميعًا غُرباء عن المنطقة، وفي النهاية قرّر أن يتناولَ طبقًا من الحساء ثم يتابع رحلته، اصطحب معه طعامًا وشرابًا، وامتطى صهوة شوق، واتّجه إلى بوابة القلعة استعدادًا لمغادرة هذه القلعة المنيعة الآمنة، وعند البوابة قال له الحرّاس:

- عليك الخروج من بوابةٍ أُخرى وليس من البوابة التي دخلتَ منها، فشَكَرَهم شرف الدين، وتوجَّه إلى الجهة التي حدَّدَها له الحراس.

عندما كان شرف الدين على وشك مغادرة القلعة من تلك البوابة رأى أحدَ الحراس المُكلَّفين بحراستها يمُدّ سهمًا ذهبيًا باتجاهه، فشكر شرف الدين الحارس، وأخذ منه السهم، ووضعه في كنانة السهام الموجودة على ظهره، وكان مكتوبًا على السهم قول الله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [سُورَةُ هُودٍ: ١١/١١٢] وعبارة:

"لا تتعالَ على سيدك"، كان شرف الدين يتابع سيره من جهة، ويفكّر بمعنى الآية المكتوبة على السهم من جهة أخرى، وتذكّر التّصرفاتِ التي قام بها، والأحداثَ التي عاشها حتى وصل إلى القلعة، وقال في نفسه: "لقد ارتكبت بعض الأخطاء أثناء رحلتي، ولكنني دائمًا كنت آخذ العِبَرَ من أخطائي، ووصلت إلى الخندق الموجود في الصحراء، إن الحرصَ هو أساس كلّ شيءٍ عند الإنسان، وبعده عليه أن يتضامن ويوحِّد جهوده مع من حوله، يجب على الناس أن لا يتصرّفوا إلا بعد التشاور فيما بينهم، وبعد بَذْلِ الجهود عليهم انتظار النتيجة من الله"، وبعدها وضع يده على عُزف شوقٍ، وقال بصوت عالٍ ما كان يفكر فيه:

- لقد تغلَّبْتُ على اليأس، وهزمت النُّسور، ووصلتُ إلى الخندق، وعبرت النهر، صحيحٌ أنني ارتكبت بعض الأخطاء، ولكنني أخذت الدروسَ والعبرَ من هذه الأخطاء، أدام الله سلامتك، لقد ساعدتني طيلة الرحلة، أنا إنسان أستحقُّ النجاح، سيُوصلني الله إلى ساحة الحياة لأنني أُنفِّذ كُلَّ ما يُطلب مِنّي منْ أجلِ ذلك.

استفزَّت هذه الكلمات شوقًا، وأخذ يخطو خطوةً إلى الأمام وخطوةً إلى الوراء محاولًا تحذيرَ شرف الدين، لأنّه كان على وشكِ ارتكاب خطإٍ جديد في الوقت الذي كان يستَخلص العِبَر

والدُّروس من أخطائِه السابقة، وفي هذه الأثناء كان صوتٌ ضعيفٌ جدًّا في داخلِه يقول له: لقد أصابَك الغرور مجدّدًا، ولكن سعادة شرف الدين التي كانت تزداد كلما تذكّر نجاحاته تمنعه من سماع ذلـك الصوت الخافـت الذي كان يجول فـي جَنَبَاته ومن الانتباه لتحذيرات شوق له.



نحو نهاية الطريق

تابع شـرف الدين طريقَه لبعض الوقت وذهنُه مشـغولٌ بهذه الأفـكار، وعندمـا التفتَ يمينًا ويسـارًا أدْرَك فورًا أنـه مرَّ من هذا المـكان مـن قبـل، ورجـع إلـى المكان نفسـه وكأنّه يرسـم دائرةً في الهضبة التي يتواجدُ فيها، تابـع شـرف الدين سيرَه مجدّدًا ظنًّا منـه أنه كان شـارد الذهن، وبعد مِضيّ بعـض الوقت عادت تلك الأفكار لتَشْـغَل ذهنه، وكان يفكر بكل ما جرى معه من مُجرياتٍ منذ بداية الرحلة، وكلما خطرَت نجاحاته بباله كان يشـعر بسعادةٍ بالغـة، وعندمـا انتبهَ إلى الطريق وجَدَ نفسـه قد عـاد إلى المكان ذاتـه مجـدّداً ولـم يكن يسـتطيـع التقدّم، مـع أنه فعـل كلّ ما يلزم لاسـتكمال الرحلـة ونفَّذَ كلَّ الشُّـروط، ولذلـك كان يظنّ أن الله سـيوفّقه فـي اسـتكمال رحلتـه، ولكن لمـاذا يلفُّ ويـدور حولَ

المكان نفسه؟ من المُفترض أن يكون قد وصل إلى ساحة الحياة الآن، لماذا لم يوفِّقه الله تعالى في هذا الموضوع؟ تُرى هل أخطأ في الأخذ بالأسباب؟

وبينما كان يُحاول استكمالَ رحلته والتخلُّص من هذا المكان الذي يذهب ويعود إليه ثانيةً، رأى تنينًا ضخمًا يقفُ أمامه، فسلك طريقًا مختلفًا وتسلَّقَ قمّة إحدى التلال، ولكن هذا الطريق أيضًا وضَعَهُ وجهًا لوجهٍ مع التنين، ولم يعد بإمكانه التراجع إلى الخلف إذ كان قد اقترب منه كثيرًا وهو شارد الذهن، كانت أنفاس التنّين تُشبه حرارة الصحراء، والصَّفعة التي وجّهها لشرف الدين بأحدِ أظافره كانت كافيةً لإسقاطه من على صهوة شوق، ولكن التنين لم يكتفِ بذلك، بل فتحَ فَمَه ونفخ لهيبًا مخيفًا باتجاه شرف الدين الذي كان يُحاول الهروب منه.

أُصيبَ شوقٌ بجروحٍ خطيرةٍ نتيجة إصابته بهذا اللهب، حيثُ احترق جزءٌ من ذيله وعُرْفِه، كما أن شرف الدين وقَع أرضًا وهو يحاول الهربَ والتخلّصَ من اللهب وحمايةَ عينيه بيديه، كان الألمُ الذي أصابه شديدًا ولكنه مع ذلك أحسّ بأنَّ النار أصابت إحدى عينيه، فبدأ الخوف والرعب يسيطران عليه، وسرعان

ما استلّ سيفه من غمده، ظنًّا منه أن التنّين الضخم سيخاف من سيفه ويهرب، وفي حقيقةِ الأمر توقّف التنين للحظات حينما رأى السيف، ولكنه ما لبث أن شنّ هجومًا آخر، ودحرَج شرفَ الدين من على قمّة التلّة التي كان يقف عليها.

كان التنين يواصل ملاحقته لشرف الدين، بينما تصْدُر من جوفه أصواتٌ تُشبه قَعْقَعَةَ الطاحونة، وضجيجًا كصوت جبل يخِرّ وينكسر.

بدأ شرف الدين يظنّ أن نهايتَه قد اقتربت، وأنه سيتحوّل إلى حَفْنَةٍ من الرماد بعد احتراقه بلهبِ التنّين، وبينما كان يتدحرج سقط منه سيفُه، وفي محاولة هجومٍ أخيرةٍ منه أمسَك بقوسه، ووضعَ فيه السهم الذي أعطاهُ إيّاه الحارس عند خروجه من القلعة، وهنا بدت أمامه الآية الكريمة ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [سورة هود: ١١/١١٢] وهو يُلقِّم قوسه بالسهم، فصوّب شرف الدين سهمَه، وأطلقه داخل فمِ التنّين الذي كان يتّجه نحوه كالصاعقة، صارخًا بتلك الآية المكتوبة عليه.

وعندما دخل السهم في فم التنّين اختفى اللهيب من فمه وكأنه تجرّع بحيرةَ ماء، وتدحرج من أعلى التلّة باتجاه الوادي مُصدِرًا ضجيجًا كبيرًا، ثم اختفى عن الأنظار بعد ذلك، وأثناء

تدحرجه كانت الأرض تهتزُّ وكأنّ زلزالًا قد وقع، وعاد شرف الدين وتسلق إلى قمّة التلّةِ التي كان يقف عليها وهو لا يرى إلا بعينٍ واحدةٍ ووقف إلى جانب شوق، لقد واجهَ شرف الدين عدوًّا جديدًا في الوقت الذي كان يظنّ فيه أنه اقترب من ساحة الحياة، ولو لم ينقذه السهم الذهبي الذي أخذه من القلعة لكان قد احترق، كان يُفكر على الدوام بمعنى الآية المكتوبة على ذلك السهم، ويبْحَث عن الخطأ الذي ارتكبه، وعندما فهم خطأه قال في نفسه: "إذًا، عليَّ أن انتظرَ التوفيقَ من الله حتى ولو نفَّذت كلَّ ما طُلب مني، وعليّ أن أُحيل إليه كلَّ شيء، ولكنني ظننت أنه لا بدّ أن أصِل إلى النتيجة حتمًا لأنني قمت بكل ما هو مطلوبٌ مني فيما يخصّ الرحلة، لقد أخطأتُ ولم أكنْ مستقيمًا كما أُمرت".

سيطرت هذه المشاعر على نفس السلطان؛ فتنحى جانبًا، وبدأ يستغفر ربّه حتّى بلَّلت الدموع المنهمرة من عينيه الأرض، لقد نفعت دموع الندم هذه عينَه المصابة، فقد بكى شرف الدين لساعاتٍ دون أن يُدرك، ولكنّه استطاع التخلّص من هذه الحالة عندما لمسه شوقٌ بأنفه، وبعدما فرك شرف الدين عينيه لبعض الوقت، شعر بالسعادة إذ رأى شوقًا بحالةٍ جيّدةٍ، ولكن المفاجأة الكبيرة بالنسبة إليه كانت عندما وجد عينه التي انكوت بلهيب

التنّيـن تُبصِـرُ النُّور من جديد، فشـعر بسـعادةٍ كسـعادةِ الأطفال، وأحـسَّ شـرف الديـن مُجـدّدًا بأنّ الله قـد أغْدَق عليه مـن نعمه، وانحنى بجسده تواضعًا واحترامًا لله، نعم، كان شرف الدين يبكي من الفرح ولكنّه كان في الوقت نفسِه يُحِسّ بخيبة الأمل والضِّيق لوقوعـه فـي نفـس أخطائـه السـابقة، وتسـاءلَ كم مـن الأخطاء سيرتكب، وكم مرّة سيندم ويتوب إلى الله، وهل سيظلّ على هذه الحال حتى نهاية الرحلة؟

أمضـى شـرف الديـن ليلَتَهُ تلك تحت شـجرة في قمّـة التلّة التي كان عليها، وأدّى صلواته هناك وما زال التأثُّر مسـيطرًا عليه تفضحُـه عيناه الدّامِعتان، أمضى الليلة كلها تقريبًا في العبادة دون أن تغفـو عينـاه، وعندما نهـض لأداء صلاة الفجر سـمع صوت أذان قادمًـا مـن بعيد، فقال في نفسـه: "إذًا، هناك جامع في هذه المنطقـة"، ورغـب شـرف الدين بـأداء صلاة الجماعـة، فامتطى صهوة شـوقٍ، واتّجه مسـرعًا فـي الجهة التي يصـدُر منها صوتُ الأذان، وقد صدَق ظنّه فقد وجد مسـجدًا جميلًا جدًّا خلف التلّة التـي أمضـى عليها ليلته، شـعر شـرف الدين بسـعادةٍ غامرة لأنه اسـتطاع اللحاق بصلاة الجماعـة، وبعد أن انتهى من أداء الصلاة بـدأ التفكيـرَ مجدّدًا بمـا صادفه من مجريات وأحـداث منذ بداية

الرحلـة، لـم يَعُد شـرف الدين يرغب بارتـكاب أيَّةِ أخطاء أخرى، نظر إلى شوق الذي كان يأكل العشبَ جانبًا، وقال له:

- سـيكون النجـاح حليف كلّ شـخص إذا مـا امتلك جوادًا مثلك.

وما أن سمـع شوقٌ هذه الكلمات حتى نظر إلى شرف الدين، وبـدأ صهيلُـه يعلو وكأنّـه يوافق على ما يقوله لـه صاحبه، ثم بدأ يعدو سريعًا بـ"شرف الدين" الذى دنًا منه، وامتطى صهوته.



ساحة الحياة

وصلَ شرف الدين إلى تلّةٍ أخرى وهو يسابق الريح ممتطيًا صهوة شوق، ووقف فوق قمّةِ التلّةِ ونظر إلى الوادي الشاسع الممتدّ خلف تلك التلّة، كان الوادي بالغَ الجمال فيه من الروائع ما لا عينٌ رأتْ ولا أذن سمعتْ، أطال شرف الدين النظر في الوادي وكأنّه سُحِرَ بما رآه، ربما كان هذا الوادي "ساحة الحياة" التي تحدّث عنها السلطان علاء الدين، فقد كانت الأماكن وكلُّ الأشياء رائعةَ الجمال! لونُ الأشجار يُشبه الزمرّد الأخضر، ومياهُ الأنهار التي تسيل فيما بين الأشجار برّاقة للغاية، والطيور تُغرِّد بنشوةٍ وسعادةٍ، وروائحُ الأزهار تُنعش الأرواح، والفراشات الملونة بشتّى الألوان تَطير هنا وهناك... إنَّ هذا الوادي يحتوي كافة أنواع الثّمار وفيه من الجمال ما يَسحر النّاظرين، وخلف الوادي يقع جبلٌ تَملأُ الثلوجُ قِمَمَه، حيث يَهُبّ منها نسيمٌ عليل، وتنبع منها جداول المياه الرقراقة والشلالات في أعالي تلك

الجداول، باختصار كان هذا الوادي مكانًا يحتوي من الجمال ما يكفي لأن يَنسى الإنسان همومَه مهما بلغت.

بعد أن شاهد شرف الدين ما حوله بإعجاب نزل من التلّة إلى الوادي، وكانت الطُرق المرصَّعة بالحجارة تتخلَّلُ مزارع الفواكه، فسلك شرف الدين هذه الطرق الحجرية متابعًا رحلته في الوادي، وفي النهاية أوصله هذا الطريق الحجريّ إلى خارج الوادي، وبينما كان شرف الدين يسأل نفسه فيما إذا كان هناك وادٍ آخر أم لا؟ إذ رأى ساحةً منيرةً وكأن ضوء القمر يشِعُّ من وسطِها، فأصابه منظرها بالذهول فتقدّم بحماسٍ حتى وصل إلى وسطها، كان قلبه يخفق بسرعةٍ كبيرة، وكان الضوء يُشعّ من تحت المباني الموجودة في الساحة، وكانت الأراضي مزيَّنةً بالزمرّد والياقوت والماس، وعندما همّ شرف الدين ليَصيحَ سائلًا: "هل من أحدٍ هنا؟" سَمِع صوتًا يقول له:

- أهلًا وسهلًا بك.

فأجاب شرف الدين متفاجئًا:

- أهلًا وسهلًا بكم.

كان صاحب ذلك الصوت رجلًا في أواسطِ العُمر، وكان وجهه مليئًا بتعابيرَ تبعث الطمأنينة والأمان في النفوس، كان

يسبّح بسُبحةٍ في يده بينما يتمتم بشفتيه كلامًا لم يَتَبَيَّنهُ شرف الدين، اقترب هذا الرجل الذي يُشعّ النُور من وجهه بسرعة وكأنّه يَطير، وكان يشبه السلطان علاء الدين كثيرًا، كان ينظر إلى شرف الدين وكأنّه يعرِفه منذ زمنٍ بعيد، ترجّل السلطان شرف الدين من على جواده فورًا، واقترب بخطًى سريعةٍ من الرجل، فبُهِتَ من شدة دهشته وتغيرت ملامح وجهه! نعم، نعم! إن هذا الرجل هو نفسه السلطان علاء الدين.

ابتسم مرحّبًا، وقال:

- أهلًا وسهلًا بك يا سلطانُ شرف الدين.

أجاب شرف الدين:

- أهلاً وسهلًا بك يا سلطانُ علاء الدين، لم أكن أتوقّع رؤيتك هنا، لقد فاجأْتَني!

السلطان علاء الدين:

- أعلمُ ذلك، قل لي: كيف كانت رحلتك؟

السلطان شرف الدين:

- لقد وصلتُ سالمًا غانمًا والحمد لله.

السلطان علاء الدين:

- حسنًا، وهل معك مفتاحُ الكنز الذي ستبحث عنه هنا؟

السلطان شرف الدين:

- لا، عن أيِّ مفتاحٍ تتحدّث يا سلطانُ علاء الدين؟

تفاجـأ شـرف الدين كثيرًا لهذا السـؤال، وظنّ أنـه كان عليه اصطحاب مفتاحٍ عند بدْءِ مشواره إلى هنا، وحزن لأنه لم يجلب معـه هـذا المفتـاح، وعندمـا رأى السـلطانُ علاء الديـن صاحبه على هذه الحالة ابتسم.

السلطان علاء الدين:

- لا عليك أخي شرف الدين، إن المفتاحَ الذي أتحدّث عنه هو الرحلةُ نفسُها التي قطعْتَها أنت.

السلطان شرف الدين:

- وكيف ذلك يا سلطان علاء الدين؟

السلطان علاء الدين:

- سـأقول لك كيف، وما عليك إلا التفكير: إذا أراد الإنسان أن يفعل شـيئًا ما، وجب عليه أوّلًا أن يعقد النية على ذلك، وبعد ذلـك عليـه أن يحرص علـى فعل ذلك الشـيء، وعليـه أيضًا أن يتشاورَ مـع الغير، وأن يصون الوحدة والتعاون فيما بينه وبينهم.

كان السـلطان شـرف الدين يقف مُطأْطِئًا رأسَـه وهو يستمـع إلى السـلطان علاء الدين، يهزُّ رأسَـه موافقًا بعد كلِّ جملةٍ يقولها

السلطان علاء الدين مؤكدًا بذلك ما يقولهُ، وهنا رفع رأسه، ونظر إلى السلطان علاء الدين، وقال له:

- يجب ألَّا تتأثَّر من إهمال الآخرين، ويجب أن تعمل في سبيل رضا الله وحده، وتنتظر النتيجة من لَدُنْه فقط.

أسعدَ هذا الكلام السلطان علاء الدين كثيرًا.

السلطان علاء الدين:

- نعم، لقد أصبتَ عينَ الحقيقة، من الواضح أنك وجدت المفتاح أخي شرف الدين.

السلطان شرف الدين:

- حسنًا، وماذا بعد الآن؟

السلطان علاء الدين:

- والأمر بعد ذلك يقع على عاتقك أوّلًا، ثم على المسؤولين الآخرين في دولتك وشعبك، في البداية ستواجهك عقباتٌ عديدةٌ لتُنحِّيك عن الطريق الذي ستسيرُ فيه، وما عليك فعله حينها هو ألَّا تفقد الأملَ أبدًا، وأن تؤدّي أعمالك بحرصٍ كبيرٍ وأن تكون مخلصًا في طلب نتيجة عملك من المولى .

السلطان شرف الدين:

- لقد فهمتُ الآن ما الذي كنتَ تحاول أن تبيّنَهُ لي، ولماذا

أردتَني أن أَخْرُجَ في هذه الرحلة، لقد فهمتُ أن الحياة عبارةٌ عن رحلةٍ يقوم بها الإنسان إلى ساحة الحياة.

السلطان علاء الدين -مبتسمًا ومشيرًا إلى طريق موجود أمامهما-:

- هيّا، أُسلُك هذا الطريق وعُدْ إلى بلدك، وباشِر بما كنتَ تريدُ تصحيحَه وتقويمَه، ولا تنسَ أن تبدأ بنفسك أوّلًا.

احتضنَ شرف الدين السلطانَ علاء الدين طويلًا وهو يشكره، وبعدها امتطى صهوة شوق، وقبل أن يتحرّك ودّعه قائلًا:

- أستودعك الله

قال له السلطانُ علاء الدين:

- إيّاك يا أخي أن تُهملَ شيئًا أو أن تتراخى عن القيام بعمل ما! وإيّاك أن تُصابَ بالغرور بسبب النجاحاتِ التي ستحقّقها! اذهب يا أخي وكان الله في عونك.



عودة السُلطان إلى بلاده

سـلك السلطانُ شرف الدين الطريق الذي أشار إليه السلطانُ عـلاء الديـن، فوصل إلى بـلاده في غُضون يومين، ولكن شـرفَ الديـن أحسَّ وكأنّه قطـع هذه الطريقَ في سـاعتين فقط، لأنه كان قـد اشـتاق إلى بلاده كثيـرًا أثناء غيابه عنها، يتوجَّب على شـرف الديـن الآن أن يفعلَ شـيئًا من أجل بلده وأن يُنهي الحالة السَّيِّئة السـائدةَ فيه، كان بإمكانه أن يُؤَسِّـس بلدًا جديدًا تمامًا بالدروس والعبر التي استقاها من هذه الرحلة، ويبدأَ كلَّ شيءٍ من جديد.

لقـد مضـى وقتٌ طويلٌ على مُغادرة السـلطان شـرف الدين للمملكة الزرقاء، وكان وزراؤُه وشعبُه قد فقدوا الأملَ من عودته إلـى البـلاد، فقد انتظروا عودتَـه طويلًا ودَعَـوا الله كثيرا من أجل عودته سالمًا، ولكنهم لمّا لم يصلهم أيُّ خبرٍ عن السلطان شرف

الذين اعتادوا على غيابه، وكانت تغمُرهم مشاعرُ الحزن بسبب طول فراقِه لهم.

وعندما وصل السلطان شرف الدين ممتطيًا صهوة شوقٍ قُبَيلَ حلول إحدى الأمسيات، شعر جميع أفراد الشعب بفرحٍ عارم، ووصل شرف الدين إلى قصره وهو مُحاطٌ بجموع المحبين من أفراد شعبه، أحسّ السلطان الذي اشتاق لبلده كثيرًا بمشاعرَ جميلةٍ للغاية إثر هذا الاستقبال الحافل، وجمعَ وزراءه دون أي تأخيرٍ، وبدأ مسيرةَ التغيير بتغييرِهِ اسمَ المملكة، وأراد أن يُطلق على المملكةِ الجديدةِ التي سيؤسّسُها اسمَ مملكة الحياة، ووزع المهامَ فورًا على وزرائه، كلّف شرفُ الدين أحدَ وزرائه بمهمّة تحسين الوضع في مجالَي الزراعة والصناعة في البلاد، ووزيرًا آخرَ بالعمل على تطوير المعدّات العسكريّة في الجيش، ووزيرين آخرين بمتابعة الأعمال والتطورات العلمية، ووزيرًا بمتابعة الشُّؤون التربوية.

وبعد مرور مدّة قصيرةٍ من الزمن توافدَ كلّ من يهتمّ بالعلوم من داخل البلاد وخارجها إلى العاصمة، ووضعوا الخطط المتعلقة بالمدارس والجامعات المُزمَع افتتاحها، وتمّ تشييد الكثير من الفنادق والحمّامات والجسور في البلاد، وتخفيضُ

أعـداد العاطليـن عن العمـل والعاجزيـن والمتسـوّلين بعد خلق فُـرص العمـل الجديدة، وتـمّ توجيه الدعوة للأغنيـاء لدفـع زكاة أموالهم، وللعلماء لدفـع زكاة عِلمهم.

وقبـل أن تنقضـي خمسُ سـنوات على الرحلة التـي قام بها شـرف الديـن إلى سـاحة الحياة، كانـت البلاد قد شـهدت تغيرًا وتطـوّرًا ملموسًـا، وأصبحت مملكة السـلطان شـرف الدين مثل مملكة السلطان علاء الدين تمامًا، كانت كلّ هذه الأشياء الجميلة التـي تـدور في البـلاد تُفرح شـرف الديـن، ولكنّ أشـياءً أخرى كانت لا تزال تشْـغَل بالَه وتُؤرّقه، حيث كان يمشـي شاردَ الذهن فـي أغلـب الأوقات، ولم يكـن راضيًا عن مسـتوى التطوّر الذي تشـهده بـلاده، فـكان بالُـه مشـغولًا علـى الـدوام بالأشـياء التي لـم تُنجـز بعـد، وكان يعتقد في نفسـه بعـدم كفاية التطـوّر الذي تحقق في مقابل الجهد الذي بُذل، وكان يؤمن بوجوب أن يكونوا الأفضـل فـي كل المجالات، ولأجل ذلك كانوا يتناولون بشـكل مكثف الأعمال التي يتم إنجازها، ويُزيلون العقبات التي تواجههم بشـكل دائم، ويتابعـون تقدُّمَهم في أعمالهم، وكان المسـؤولون في البلاد، وفي مقدمتهم السلطان شرف الدين يعيشون حياةً مليئةً بالجِـدّ والعمـل، بيـد أن نقصًا مـا كان في إحدى الأمـور، وكان

عليهم أن يتَّخذوا إجراءً جديدًا لتذليل العقبات التي تواجههم، وبناءً عليه قرروا إعادة النظر مجدّدًا بكافة الأعمال.

ومرّت سنةٌ أخرى، لكنّ الأعمال التي يتمّ إنجازها في البلاد لم تكن أيضًا في المستوى الذي يرغب به شرف الدين، كانوا ينفِّذون كلّ ما هو مطلوبٌ منهم، ويُعيِّنون الرجل المناسب في المكان المناسب، ويَعكُفون على العمل ليلَ نهار، ومع ذلك لم يستطيعوا الوصولَ إلى المستوى الذي كانوا يطمحون إليه، وكان شرف الدين يحاسب نفسَه ومن حولَه باستمرارٍ لتجاوزِ هذا الوضع، ويُعامل المحيطين به وكأنّهم مُقصِّرون في أعمالهم، حتى إنهم كانوا في بعض الأحيان يستاؤون من تصرفاته هذه، ولكن لماذا لم تكن نجاحاتهم بالمستوى المطلوب على الرغم من عملهم الدؤوب؟ أصبح هذا الوضع يُؤرِّق ليالي شرف الدين، ولم يجد طريقة يتخلّص فيها من الأفكار التي كانت تدور في رأسه، وفي إحدى الليالي رأى منامًا.



الحلم الذي جاء بالحلّ

رأى شـرف الديـن فـي المنام أنـه ذاهبٌ إلى سـاحة الحياة، وكان هـذا الحلـم يُشـبه حدثًا عاشـه مـن قبل، حيث لـفّ حينها مـراتٍ عديدة حول مكان واحـد وفي النهاية واجه تنِّينًا، لقد رأى فـي منامـه نَفْسَ التنيـنِ الذي واجهـه وهو في طريقه إلى سـاحة الحيـاة، والذي كاد يُحرقه ويحوِّله إلى رماد، كان التنين قد ضربه بكفه، وأوقعه عن ظهر شـوقٍ، ودحرجه إلى أسـفل التلّة، وحينها بدأ شـوق يحترق بِكُرة لهبٍ عظيمـةٍ نفخها التنين من فمه، وكان شـرف الديـن الذي فقد إحـدى عينيه نتيجةَ الضربـةِ التي وجهها له التنينُ يتدحرج دون توقّفٍ ولكنه لم يكن يعرفُ ما هو المرتفـع الذي تدحرج منه، فظلّ يتدحرجُ حتى نهاية الحلم، وكان يسـقط دون أن يصل إلى مكان يستقرّ فيه.

وحينما استيقظ لم يستطع تحديد درجة خوفه، ولم يعلم أيُّ الخوفين أكبر: هل الخوف الذي اعتراه في الحقيقة، أم الخوف الذي اعتراه في المنام؟ لقد تعرّق كثيرًا وهو يرى هذا المنام، نهض من فراشه وعندما وجد أن موعد صلاة الفجر لم يَحِنْ بعدُ، قام بأداء صلاة التهجّد ودعا ربه، ثم تلا آياتٍ من القرآن الكريم حتى أذان الفجر، وعندما أُذّن للصّلاة توضّأ وخرج من منزله قاصدًا الجامع، كان وجهه مُصفرًّا للغاية، وشارد الذهن وكأنه لا يرى من حوله، وكان ذهنه منشغلًا تمامًا بالمنام الذي رآه.

وبعد الانتهاء من الصلاة غادر جميعُ المصلّين الجامع، ولكن شرف الدين لم يَبْرح مكانه، بل ظلّ يحدِّقُ في نقطةٍ ما وينظر إليها دون أن يَرِفَّ له جفنٌ، كان كبير الوزراء سليمٌ قد انتبه لحالةِ السلطان شرف الدين فلم يغادرِ الجامعَ، وكان يُراقب السلطان شرف الدين وهو جالسٌ في المحفل المخصص لجلوس المؤذنين، واستمر الوضع على هذه الحال لبعض الوقت حتى استطاع شرف الدين العودةَ من شُروده، لم يرغب سليم في تركه لوحده؛ فاتجه نحوه، وسأله:

- مولاي! أراك بحالة غريبة، أتمنى من الله أن تكون بخير، هلّا أخبرتَني بما حدث معك يا مولاي؟

السلطان شرف الدين:

- نعم، إنني أعيشُ الآن في حالة غريبة كما قلتَ، لقد رأيت حُلُمًا عجيبًا، وفي حقيقة الأمر كان الحلم مشابهًا إلى حد كبير لحادثةٍ كنتُ قد عِشْتُها سابقًا.

سليم:

- خيرًا يا مولاي، هل ترغب في أن نسألَ كبير المعبّرين عن تفسير هذا الحلم؟

السلطان شرف الدين:

- حسنًا أيها الوزير العزيز، لأنني إن لم أسأل المعبّر فسأظل أُفكّر بالمنام دون أن أجد له أيّ تفسير، هيّا بنا نذهب.

وعندما وصلوا إلى المعبّر تحدّث شرف الدين عن المنام الذي رآه، وعن الحادثة التي عاشها عندما كان ذاهبًا إلى ساحة الحياة، وفي هذه الأثناء استمعَ سليم الذي أَبَى أن يذهب إلى ساحة الحياة، إلى حديث شرف الدين باهتمام بالغ، ولمّا انتهى شرف الدين من حديثه قال له المعبّر:

- يا بني! إن ساحة الحياة ليست مكانًا يَصِلُ إليه كلّ من يرغب في الذهاب إليه، إن كلّ حادثة عِشتَها لها حكمةٌ ما، قُلْ لي كيف استطعت التخلصَ من التنينِ الذي صادفتَه أثناءَ رحلتك؟

السلطان شرف الدين:

- في اللحظة التي كان سيُحرقني فيها رميتُه بسهمٍ داخلَ فمه، ومـا أن دخل السـهمُ في فمهِ حتَّى تدحرجَ إلـى الوادي الموجود في أسفل التلّة.

المعبّر:

- حسنًا، هل لك أن تحدِّثني عن ذلك السهم الذي خلّصك من ذلك التنّين الضخْم؟

السلطان شرف الدين:

- السـهم؟ كان منقوشٌ عليه الآيةٌ الكريمة ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [سُورَةُ هُودٍ: ١١/١١٢]، وبالطبـع فإنـي فهمـتُ خطئي بعد هـذه الحادثة وتُبتُ إلى ربي واسـتغفرته وسـألتُه العفوَ، إننـي أتذكر ذلك جيّدًا لأننـي حينهـا كنتُ أظنّ أن الله يجـب أن يُنَفِّذَ كلّ طلباتي بمجرد تنفيـذي ما هو مطلـوبٌ مني، أي أنني كنتُ أتدخّل بشـؤون ربي بدلًا من انتظاريَ التوفيق منه.

المعبّر:

- يـا مـولاي! إن هـذا المنام ليـس منامًا عاديًـا، وأظن أنَّك الآن ترتكـبُ نفـس الخطـأ الـذي ارتكبتـه أثنـاء رحلتـك، أنـت لـم تسـتطعِ التغلُّـبَ على التنّين فـي منامك، يبدو أنـك تتصرّف

على خلاف الآية الكريمة المنقوشةِ على السهم الذي هزمَ التنّين، ما رأيك بهذا الكلام؟

السلطان شرف الدين وهو مطأطئٌ رأسَه خجلًا:

- الحق معك في كلّ ما قلتَه، إذًا لقد تدخّلتُ في شؤون ربّي مجدّدًا دون أن أدري، لقد أتعبتُ نفسي وأتعبتُ شعبي عندما ظننتُ أن نتائجَ أعمالنا يجب أن تكون أفضلَ من تلك التي نُحقّقُها، لأن واجبنا أن نُبدي الحرصَ والقيامَ بالعمل فقط، أليس كذلك؟ وانتظار النتيجة من ربّ العالمين، ولكن كيف سنستطيع التخلّص من هذا الوضع؟

المعبّر:

- لقد تحدَّثتَ عن الوصفة بنفسك أيّها السلطان! كلّ ما عليك القيام به هو أن تعمل بإخلاصٍ وتنتظر التوفيق من ربّ العالمين، وألّا تتصرّف وكأنّك ستحصل حتمًا على كلّ شيء بمجرّد قيامك بعمل ما، عليك أن تعمل من أجل الحصول على كل شيء، ولكن عندما لا يتحقّق لك ذلك يجب أن لا تبدي أيَّ استياءٍ حياله، ويجب علينا أن لا ننسى أبدًا أنَّ الخير فيما يختاره الله دائمًا.

وهكذا تعلَّم شـرف الدين درسًا ثانيًا من الآية الكريمة نفسِها لأنّه كان قد ارتكب الخطأ نفسه، نزلت دموع شرف الدين خجلًا من ربّ العالمين، وكان يرغب في الانفراد بنفسه، فعاد إلى القصر ودخل غرفتَه بهدوء.



عصر الراحة

مكث شـرف الدين فـي غرفته طويلًا، وطلب مـن ربّه العفوَ بعد أن أجرى أكبر محاسبة لنفسه طيلة حياته؛ لأنه كان قد ارتكب نفس الخطأ مجدّدًا، ولكنه كان عازمًا هذه المرّة على أن يقوم بما هـو مطلـوب منه فقـط، وألا يتدخَّل فيما عدا ذلك وألا يتشـوّف لأي شـيء، فالقلوب بيد الله، وكان على شرف الدين أن لا ينسى هذا الأمر أبدًا.

كان شـرف الدين قد اسـتخلصَ درسًا آخر من هذه الحادثة، وأبدى حرصًا وإخلاصًا كبيرَين بعد ذلك، لأنه أدرك أنه لا يجوز للإنسـان أن يطلُبَ شـيئًا من الله جبرًا مقابل قيامه بما هو مطلوبٌ منه، لقد ترسـخت هذه الفكرة في نفس شرف الدين، ولذلك بدأ ينجـز مـا هو مطلوب منه من أعمال علـى أكمل وجه، ويدعو الله

سـبحانه وتعالـى دائمًـا أن يحصل على أفضل نتيجـةٍ لعمله، كما كان شَعْبُه في حالةٍ من الاتحاد والتضامن والتكاتف.

ومضى عشـرون عامًا وهم على هذه الحالة، وأصبحت بلاد السـلطان شـرف الدين أغنـى من المملكـة الخضـراء، كما أنهم كانوا قد غيروا اسم مملكتهم إلى "مملكة الحياة"، ولم يعد هناك شيءٌ اسمه الفقر في هذه البلاد التي باتت تعُجّ بأحدث المشافي العصريّـة، وكان أصحاب الأمراض المسـتعصية يأتون إليها، وقد شُـيِّدت فيها أحدث وأفضل المدارس، وأصبح العلماء يتنافسون علـى العمـل فيهـا، كانت سـعادة شـرف الدين غامـرةً وهو يرى مملكتَه قد أصبحتْ نموذجًا يسعى الجميـع للتشبه به ولتقليده.

مَرَّ الزّمن سـريعاً، وشـرف الدين منشغلٌ بشؤون بلاده طوال سنين عديدة لم يفكّر فيها في بنفسه، ولكنه بدأ التفكير في الزواج بعد إصرار وزرائه، وبعدَ بحثٍ وجدَ شـرف الدين شـريكة حياته، وأقـام عُرسًـا متواضعًا أصبح السـلطان بعده زوجًا سـعيدًا تُعينه زوجته على مهامه وتُشـاركُه همومَه، وبعد مرور عدةِ أعوامٍ رُزق شـرف الديـن منها بولـدٍ وبنتين، لقـد كانت سـعادته لا تُوصَف، وكان يعمـلُ مـع زوجتـه كلَّ ما يمكنهما من أجـلِ تربيةِ الأطفال تربيةً جيّدة، وكان السلطان شرف الدين ممتنًّا للغاية لأن ابنه كان

يملـك شـخصيّةً قياديّةً منذُ ولادتـه، وكانت بنتـاهُ أنموذجًا للعفَّةِ والجمال.

كَبُـرَ ابنُ السُّـلطان، وأضحـى والده رجلًا كبير السّـنّ، وكان ولـيُّ العهد الشـابُ النَّشـيط يعتقد أنـه بإمكانـه أن يجعل مملكة الحيـاة متقدمـةً ومتطـورةً أكثر فأكثـر ووجد تأييدًا مـن المجلس أيضًا لفكرته هذه، فسُلّمت مقاليد الحكم للسلطان الشاب، ولكن التَّطور الذي كانت تشـهده مملكة الحياة جعل السـلطان الشـاب يغتـرُّ بمـا يرى فقد أَذهـلَ الغنـى والأبّهة الموجـودان في مملكة الحياة عيونَ جميـعِ من زارها.

كان السـلطان الشـابّ بِعَكْسِ والده السـلطان شـرف الدين، لا يبـذل جهدًا لتطوير البلاد وزيادة رخائها، فقد اكتفى بما وصل إليـه والده، ولـم يُبدِ حرصًا كبيـرًا لتعزيز تطـوّر مملكته، بل كان حرصـه مُنصبًا في أغلب الأحيـان على الحفاظ على النظام الذي أسّسـه والده وضمان اسـتمراريّته، ومـع مرور السـنين على هذه الحالة عمّ الرخاء والغنى كافة أنحاء البلاد.

اعتـاد الجميـع بسـرعة على هـذا الوضـع المريح السـائد فـي البـلاد، حيث كان أغلبُ النـاس يَنْعُمُ بهـذه الراحة كما تنعم الشجرة بالأرض الطيّبة، بالطبـع تسبّب طراز الحياة هذا في بعض

السلبيّات، فالناس بدؤوا يبحثون عن أقصر الطرق التي تُوصلهم إلى الغنى، ولم يعودوا يعملون كما كانوا يعملون في السابق، فأصبحت الورش والمحالّ تفتح أبوابها في أوقاتٍ متأخِرةٍ من النهار، وتغلق في ساعاتٍ أبكر، وأصبح لدى الناس ثقة كبيرة بمدى غناهم وراحتِهم ورفاهيتِهم.

ونتيجةً لهذا الوضع افتُتِحَت أماكنُ لهوٍ كثيرةٌ في مملكة الحياة التي يشار إليها بالبنان كأحد أشهر مراكز العلم، كما ازدادت أعداد الأشخاص الذين يشربون الخمر ويلعبون الميسر زيادة ملحوظة، وكان هناك من يذهب إلى بعض الدول غير المسلمة من أجل لعب الميسر، وكانت حالة الاتحاد والتضامن والتكافل بين أفراد الشعب تتدهور يومًا بعد يوم.

امتلأت البيوت بالخدم، وكان البَذَخ والإسراف يزداد مع مرور الأيام، وكانت الموائد عامرةً بخمسٍ أو ستٍ وجباتٍ يوميًّا، واجتمعت النسوةُ فيما بينهنّ كثيرًا من أجل القيل والقال، لا همّ لديهنّ في هذه االمجالس سوى بثِّ الشائعات والغيبة والنميمة، ليس لهنّ من اهتمامات سوى تتبّع ثروات بعضهنّ البعض وما اشترينَ وما اقتنينَ، وللأسفِ أصبحت علاقات الناس محكومةً بالمصالح، ولأسبابٍ مجهولةٍ كان أغلب الناس يقارنون

أنفسهم بمن هم أعلى منهم مرتبة، حتى إن البعض منهم ونتيجة ضعفه أمام هذه المشاعر بدأ بالسرقة على الرغم من أنّ أوضاعهم المادية كانت جيّدةً، ممّا أدى إلى ازدياد أعداد المساجين إلى حدٍّ كبير، وأصبح اللّصوص يحتلّون المرتبة الأولى من حيث المعتقلين، أما المرتبة الثانية فقد احتلّها الذين ارتكبوا منكرات بسبب السُّكْر، فقتلوا الناس، وانفصلوا عن عائلاتهم، وارتكبوا جرائم منافية للأخلاق.

وأدّتْ حالة الإهمال التي ازدادت في البلاد إلى وقوع الكارثة الكبرى، فبُنْيَةُ الإنسان التي خلقها الباري ﷻ بشكل تتناسب فيه مع الحركة والعمل، تكاد تُفني نفسها بنفسها عندما تبقى عاطلة عن العمل، وبذلك أصبحت أكثرُ البلاد تطوّرًا في عصرها تشبه مريضًا مصابًا بالسرطان نتيجة الإهمال الذي أصابها، مع العلم أنهم كانوا يعملون سابقًا خمسَ عشْرة أو ستَّ عشْرة ساعةً يوميًا، ولم يكن هناك أحد يشكو من تلك الحالة، فالناس مهما تعبوا حينها كانوا ينامون في بيوتهم وهم مرتاحون، وكان الجميع يحبّون ويحترمون بعضهم البعض، ولم يكن أحد منهم يعتدي على حق الآخر، إن أولئك الناس لم يشربوا الخمر، ولم يلعبوا الميسر، ولم يرتكبوا جرائم السرقة وغيرها من الأفعال اللاأخلاقية عندما

كانت المملكة فقيرة، فما الذي حصل لهم يا ترى لكي يفعلوا كل هذه الأمور وقد أصبحت المملكة لا ينقصها أي شيء؟

ومن جهة أخرى، لم تكن أخبارُ البلادِ والحالةُ التي وصلت إليها تصل إلى السلطان الشابِ الذي لم يكنْ يغادر قصرَه لقناعته بأن بلاده من أكثر بلدان العالم تقدُّمًا وتطوُّرًا، حيث كان السلطان الشاب مشغولًا بالعناية بالحديقة والورود، ولم ينتبهْ لما يجري من حوله إلى أن وصلت الآفات إلى العاملين في القصر ووقعوا هم أيضًا في مستنقع الطمع، فأصبح كل واحد منهم مهووسًا بالمال يرغب بأن يصبح غنيًا في ليلة وضحاها دون أن يعمل أو يتعب.

كان بعض هؤلاء يسرق من خزينة المملكة حتى أصبحت الخزينة خاويةً من أيِّ مالٍ، والأسوأ من ذلك أن هؤلاء كانوا يفعلون كل ذلك بقيادة الوزراء المكلفين برعاية مصالح وأحوال المملكة، كما أن السلطان لم يكن يتابع مجالس العلم، وكان يكتفي بقراءة التقاريرِ المقدَّمةِ إليه، لأنه كان يعتقد أنه بقراءة تلك التقارير يقوم بأداء عمل كبير، وكان الوزراء يتابعون كلَّ شيء كما يحلو لهم أن يتابعوه، وكانت الأمور تجري على هذا المنوال دون أيّة منغّصات، فقد كان السلطان الشابّ الذي لم يعلم بما يحدث،

يعيشُ حالةً من السعادة الزائفة وهو يظنّ أنه أنشأ لنفسه ولبلده نظامًا في منتهى الدقّة.

وفي أحد الأيام التي كان فيها السلطان الشابّ يعتني بزهوره، أتى إليه أحد الوزراء من أصحاب الضمائر الحيّة، وطلب مقابلته؛ فقد ازدادت حالة الفوضى في البلاد ووصلت إلى درجة تصعب معها السيطرة على المملكة.

السلطان مستغربًا طلبَ الوزير في مقابلته:

- خيرًا إن شاء الله أيها الوزير؟ ما الذي تودّ قولَه؟ وما هو هذا الأمر العاجل الذي جعلك لا تنتظر موعد الاجتماع؟

الوزير:

- مولاي! الجميع يتحدّثُ عن غنى بلادنا، ولكن أودّ أن أحدّثكم في بعض الأمور السيّئة، لأنني لا أعلم ما الذي سيجري لمملكتِنا إذا لم نجد حلولًا لهذه الأمور.

السلطان:

- هل أنت على دراية بما تقوله أيها الوزير؟ ما هذه الأمور السيّئةُ التي يمكن أن تحدث في مملكةٍ كهذه لا يوجد لها نظير في العالم؟ من ذا الذي يستطيع النَيلَ من مملكة الحياة، وكيف؟ أظنُّ أنك مخطئ.

الوزير:

- مولاي! سأحدّثكم عن كلّ شيء، إذا ما استمرّت البلاد على هذه الحال فإننا سنهدم دولتنا بأيدينا دون أن يتدخّل الخارج في ذلك.

السلطان وهو لم يدرك بعد مدى خطورة الموقف:

- لقد أفسدتَ نهاري، قل لي ما هي هذه الأمور السيّئة، لقد حملت إليّ هذا الخبر التَّعِيسَ وأنا أقفُ إلى جانب أحلى ورود الحديقة.

أخبر الوزيرُ السلطانَ بكل الأمور السيّئةِ التي تجري في البلاد، وقال له بأن الوزير المكلَّف بإخبار السلطان بهذه الأمور أصبح مشغولًا هو الآخر -وللأسف- بسرقة البلاد، ولم يكن السلطان الشابّ قد سمع بمثل هذه الأخبار السيّئة من قبل، في البداية لم يكن يرغب بتصديق الوزير، لأنه كان يظنّ أن المملكة تكون على حافّة الهاوية إذا كانت أقوال الوزير صحيحةً، ولكنه كان يثق بهذا الوزير، لأنه لم يعهده كاذبًا قطّ، فلم يكن بإمكان السلطان التغاضي عما قيل، وكان عليه أن يفعل شيئًا.

السلطان بعد أن فكّر طويلًا:

- أريد منك أن تنظر في أحوال البلاد بشكل مُفصَّل، وتبحث عن الأسباب التي أوصلتها إلى هذه الحال، وتُعدَّ لي تقريرًا بذلك.

الوزير:

- كما تشاؤون يا مولاي.

السلطان:

- هل ما نحن فيه بسبب الغنى أيها الوزير؟

الوزير:

- ما ذنب الغنى يا مولاي؟ ذنبنا هو أننا استسلمنا للراحة والإهمال بعد أن تطوّرت مملكتنا وأصبحت غنية.

السلطان:

- كلامك صحيح أيها الوزير، كيف وقعتُ في مثل هذا الخطأ؟ مع أن والدي كان يقول دائما: "الإنسان يحب الحركة والنشاط بطبيعته كالجداول، وعندما يتوقف عن الحركة والنشاط فستفوح رائحته كبركة ماء راكدة".

الوزير:

- لا فُضّ فوك يا مولاي، كان السلطان شرف الدين يقول دائما: "راحةُ الإنسان في عملِهِ وفي سعيِهِ".

وبعـد هذا اللقاء حدّد الوزيرُ كافَة الأمور التي لم تكن تسـير على منوالها الصحيح في البلاد، وكان للسـلطان الشاب وللوزير بعـضُ الأفـكار الخاصةِ بحلّ هـذه المشـاكل، ولكنهما فضّلا أن يستشيرا أحد العارفين.



ليس للإنسان إلا ما سعى

قرر السلطان الشابّ الذهابَ إلى والده شرفِ الدين، السلطانِ السابقِ للبلاد وحكيمِ المملكةِ ليسألَه عن كيفيةِ إنقاذِ البلادِ مما هي فيه، كان السلطان شرف الدين في هذه الأثناء يعيش مع زوجته وأحفاده حياةً سعيدةً في بيتٍ متواضعٍ بعيدٍ عن المدينة يقعُ وسطَ حديقةٍ للفواكه، وكان العديد من الأشخاص يزورونه يوميًا للاستفادة من تجاربه و الاستماع إلى أحاديثه، كما كان يلتقي أحيانًا بصديقه الحميم السلطان علاء الدين الذي لم يقطع الاتصالَ به قطّ، حيث كانا يتبادلان وجهات النظر والأفكار، ويتذكّران الأيام الماضية.

وعلى حين كان السلطان شرف الدين جالسًا مع زوجته في حديقة منزله في صباح أحد الأيام، رأى فرقةً من الخيّالة يتصاعد الغبار الكثيف من خلفها تسيرُ باتجاهه، فأدرك أن القادم

إليه هو ابنه السلطان، كان السلطان شرفُ الدين يعلمُ بكل ما تشهده البلاد من صعوباتٍ في الآونة الأخيرة، وبالطبع كان يعرف الحلولَ التي يمكنها أن تُذلِّلَ هذه الصعوبات، ولكنه كان يريد أن يعيشَ ابنُه هذه الصعوبات بنفسه ليأخذَ الدروسَ والعبر منها، ومن ثَمَّ لم يبادر بالتدخل في شؤون البلاد.

اتكأ شرف الدين على شجرة الكرز الموجودةِ في الحديقة، وقال في نفسه: "وأخيرًا زالت الغشاوةُ من على عينيه"، ثم ابتسم، وقال لزوجته:

- جهزي المشروبات الباردة يا عزيزتي، لأنَّ سلطانَ أكثرِ البلدانِ تألّقًا وأكثرِها معاناةً في طريقه إلينا.

وبعد قليل وصل الابنُ إلى منزلِ والده، فاستقبلَه الوالد بابتسامةٍ وعامله بحميميةٍ أشعَرَت السلطان الشابّ بالخجل الشديد، لأن والده كان قد أسّس هذه المملكة، وسلَّمهُ إياها وهي في ذُرْوَةِ تقدُّمها وتطوُّرها، لقد كان والده رجلًا موهوبًا ومخلصًا، ويملك تجارب لا تُعدُّ ولا تحصى، وعلى حين كان السلطان الشاب يملك نعمةَ التشاورِ الدائم مع والده، إلا أنه لم يكن يتذكّر ذلك الوالد إلا قليلًا، وقد أحس بالحرج الشديد لأنه كان يتذكّر والده فقط عندما تشتدُّ عليه المحن.

أشـار السـلطان شـرف الدين إليهم بالجلوس، ومـن ثَمَّ بدأ بالحديث.

السلطان شرف الدين:

- أهـلًا وسـهلًا بكـم، كم أنا سـعيد بلقاء سـلطان أكبر دول العالم ووزيره، هل لي أن أعرفَ سببَ زيارتِكم؟

السلطان الشاب وهو خَجِل:

- أهـلًا بـك يـا والدي، بدايـةً أرجـوك أن تعفوَ عنـي لأنني لـم آتِ لزيارتك منذ مدّةٍ طويلةٍ، هل ستعفو عني يا والدي؟

السلطان شرف الدين:

- طبعًـا يـا بُنَـيّ، لقـد تراجعـتَ عـن خطئـك فـي النهايـة، قل لي الآن: ما هو سببُ زيارتكم لي؟

كان السـلطان شرف الدين يعرف سـبب الزيارة، ولكنه سأل هذا السؤال ليعرفَ مدى علم ابنه بأحوال البلاد.

السلطان الشاب:

- آه يـا والـدي، لا أدري ما الذي حلَّ بنا، أقودُ أعظمَ مملكة فـي العالم بنيناها بالعمل الدؤوبِ ليـلَ نهار، ولكنني الآن أواجه مشاكل كبيرةً جدًّا.

السلطان شرف الدين:

- وهذه المشـاكل بـدأت تؤرّق مضجعك منذ مـدّة قصيرة، لأنك علمت حديثًا بما يجري في بلادك، أليس كذلك؟

طأطأ السلطان الشّاب رأسه خجلًا عندما سمـع كلام والده، ثم تحدّث بالتفصيل عما يجري في بلاده من سيّئات.

اسـتمـع السـلطان شـرف الدين إلى ابنه بـكلّ اهتمام، وكان يسـأله بين الحين والآخر أسئلةً ليفهمَ الموضوع من كافّة جوانبه، وقد عرفَ تمامًا الوصفةَ التي سـتنقذ البلاد من مآسـيها، بعد ذلك تحدث السـلطان المسـنُّ عن الوضـع الذي كان سـائدًا في بلاده سابقًا، وعن الرحلة التي قام بها إلى ساحة الحياة، وعن التجارب التي اكتسبها في هذه الرحلة، وتابـع قائلًا:

اسمـع يا بني، إن السبب الرئيس لكافةِ المصاعبِ والمشاكلِ والوبـاءِ السـائدِ فـي البلاد هـو الميلُ إلـى الراحة، فرغبـة الناس فـي الراحـة تُكبّـل أيديهم وتَسُـوقُهم إلـى الوقوع فـي الأخطاء، مـع أن الإنسان بطبعه مَجبولٌ على حُبِّ العمل والحركة، فالإنسان يَكتسب الراحة الحقيقية عندما يعمل ويسعى.

السلطان الشاب وعيناه مغرورقتان بالدموع:

- كلامـك صحيـح يا والدي، لقد وصلنـا إلى ما وصلنا إليه عندما توقفنا عن العمل.

السلطان شرف الدين وهو راضٍ عن موقِف ابنه:

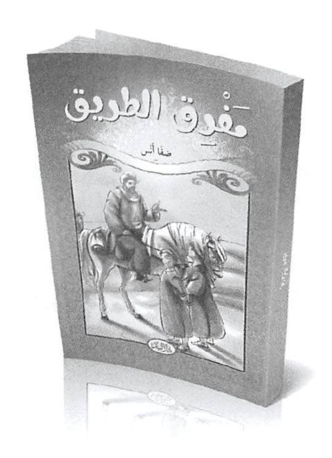
- نعم، يجب أن لا نتوقّف عن العمل أبدًا، ويجب أن تكون الحقيقة الراسخة التي تقول "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى"، دليلًا لنا يقودُ حياتنا.

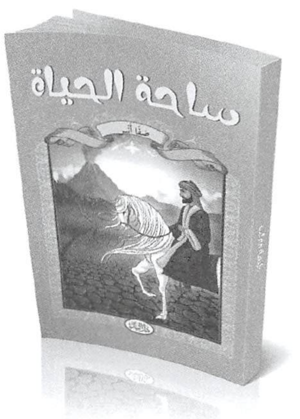
وبعد ذلك ودَّع السلطان شرف الدين ابنه إلى عاصمة أعظم مملكة في ذلك العصر، فقد كان الداء الذي أصاب البلاد معروفًا، وقد عَلِم السلطان جيّدًا الدواء الذي سَيُخلّص البلاد من هذا الداء.

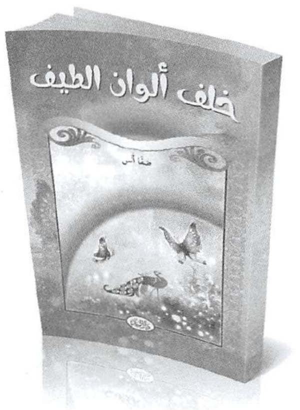
الدواء هو: الحركة والنشاط والعمل والسَّعيُ دون توقف ليل نهار...

سلسلة حكايات رسائل النور









جموعة قصص مبسطة مختارة مما ورد في كليات رسائل النور للأستاذ بديع الزمان سعيد ورسي، تهدف إلى تعليم أبنائنا وبناتنا الأعزاء قيمنا النبيلة كالإيمان بالله تعالى والأخلاق الفاضلة ورعاية حقوق الآخرين ومعاملة الناس معاملة حسنة.

كما ترمي هذه القصص الجميلة إلى تحسين سلوك أولادنا وتصرفاتهم.

ريد أن نذكر بأن أولادنا وبناتنا في حاجة ماسة إلى مثل هذه القصص التي تساعد على تنشئة جيل صالح نافع.